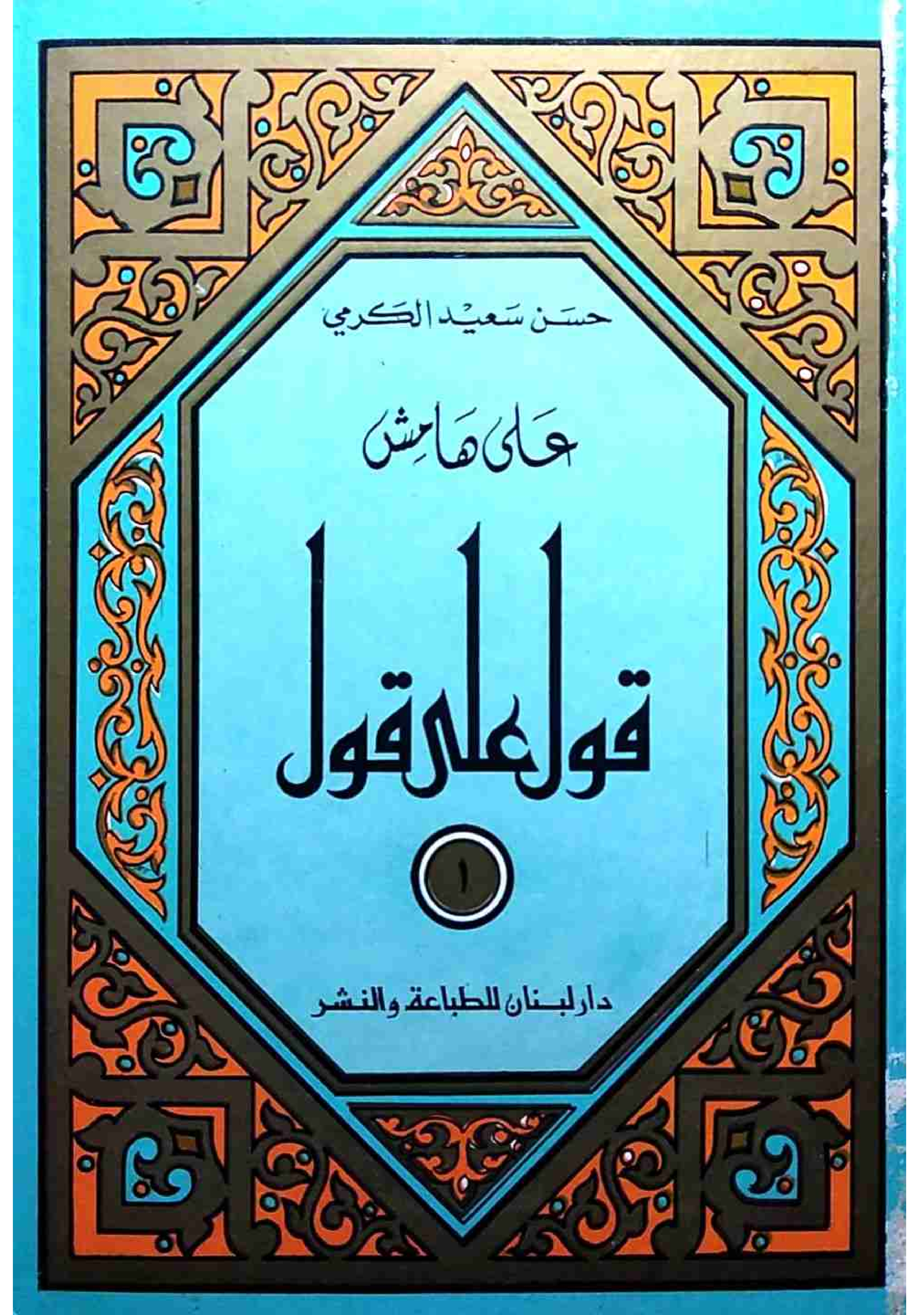

حسن سعيد الكرمي
على هامش
قول على قول
١
دار لبنان للطباعة والنشر



علي هاشم

قول على قول

حسن سعيد الكرمي

على هامش

قول على قول

الجزء الأول

دار لبنان للطباعة والنشر

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م
بيروت - لبنان

مقدمة

يسرنا أن نقدم إلى القراء العرب هذه السلسلة الأدبية الجديدة «على هامش قول على قول» وهي أيضاً مستقاة من ذخائر الأدب العربي وطرائفه. وهي كسابقتها «قول على قول» تصب في جهودنا الهادفة إلى إغناء مكتبة المطالعة العربية بالكتب المشوقة في المادة والأسلوب والمستقاة من الينابيع التي لا تنفد من تراثنا العربي، والتي تزيد القارىء ثقافة ومعرفة وحبًّا بتراثه الخالد على مرّ العصور.

والله نسأل أن يوفق جهودنا إلى ما فيه الخير.

حسن سعيد الكرمي

حب الوطن

ممّا عرّفوا الوطن قالوا: هو المكان الذي يأمن المرءُ فيه على جسده وروحه، أي هو المكان الذي فيه أمان على الجسد من ضرب أو تعـذيب أو حبس، وعـلى الروح من ضغط عـلى حريـة القول والتفكـير والمعتقد. وهذا تعريف فيه قدر كبير من الشمول، غير أنه أغفل أموراً أخرى منها أن للوطن نـاحيةً عـاطفيةً تتصـل بالآبـاء والأجداد وتتصـل بـالعـادات المأثورة وبالتقاليد وبالأدب القومي والشعبي وبالتاريخ وباللغة. واللباس القـومي وعادات الأكـل والشرب والأفراح والأحـزان وعبارات الكـلام واللغـة المتداولـة والآمال القـومية هي جـزء من الوطن لا يجـوز التخلي عنها. والوطني ينظر دائماً إلى الداخل ولا ينـظر إلى الخارج، أين يستقي أفكـــاره ومشاعـره من واقع وطنـه وليس من واقـع وطن أجنبي عنـه، ويكـون رائده في ذلـك مصلحة وطنـه قبـل كـل شيء. وأذكـر لـرجـل تشيكوسلوفاكي عرفته قوله لي: إنكم معـاشر العرب إذا لبستم اللبـاس الأوروبي إنما تلبسون اللبـاس لا غير ولا تفـطنون إلى أنكم مـع اللباس تلبسون مدنيّة غير مدنيّتكم.

هـذه عوامـل وأركان يتكـوّن منها معنى الـوطن. والمعنى بالـطبـع يختلف باختلاف الأوضاع، فالوطن للبدوي خـلاف الوطن للحضري. والـوطن في البلد الصناعي خـلاف الوطن في البلد الـزراعي، والـوطن

للصبي خلاف الوطن للشيخ، وهو للمرأة خلاف ما هو للرجل وهكذا، ولكن بين هذه الأوضاع جامع يجعل للوطن معنى يفهمه الجميع ويدينون به. وهذا المعنى الجامع هو الذي نقول له حب الوطن.

وقد يرى البعض أن العرب في الصحراء بسبب ترحالهم كانوا لا يعرفون معنى الوطن، وهذا رأي لا يؤيده ما ورد عنهم في أشعارهم، كقول أعرابي قديم:

بلاد ألفناها وعشنا بفضلها
وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن
فلا طاب فيها الأرض كلّا ولا الهوا
ولا ماؤها عذب ولكنها وطن

فهذا الأعرابي يحب بلاده على علاتها لأنها وطن. وكان العرب يحبون وطنهم لأنه مسقط رأسهم وفيه قضوا طفولتهم وأدركهم عقلهم وفتحوا أعينهم على الدنيا، وكان هذا عزيزاً عليهم. ويقول رِقاع الأسدي:

أُحِب بلادَ الله ما بين مَنْعِج ... إليّ وسلمى أَنْ يَصوبَ سحابها
بِلاد بها نيطت عليّ تمائمي ... وأول أرض مسّ جلدي ترابها

والتمائم جمع تميمة وهي عوذة كانت تعلّق على المولود منذ الولادة تقيه شرّ الجن أو الأذى على اختلاف أنواعه وكانت تظل معه حول عنقه إلى أن يبلغ حد الرجال فتزال عنه. ومثل ذلك قول منظور بن عُبَيد بن مزْيَد أو قول ابن ميّادة:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة ... بِحَرَّة ليلى حيث ربَّبني أهلي
بلاد بها نيطت عليّ تمائمي ... وقُطّعِن عني حين أدركني عقلي

ويقول عين القضاة عبد الله بن محمد:

أحِن إلى أرض الحجاز لأنها منازل أحبابي وأهل مودتي
بلاد بها نيطت عليّ تمائمي وأول أرض تربها مسّ جلدتي

فالوطن عزيز لأنه مولد المرء ومعهد الطفولة وأول عهد الشباب، كقول الأعرابي:

ذكرتُ بلادي فاستهلت مدامعي
لشوقي إلى عهد الصبا المتقادم
حننتُ إلى أرضٍ بها خطّ شاربي
وقُطع عني قبلُ عِقد التمائم

فعهد الصبا في حياة المرء من أجمل العهود وحب هذا العهد ضمان لحب الوطن الذي انقضى فيه ذلك العهد. وفي ذلك يقول أبو عدي العبلي:

أحِنّ إلى وادي الأراك صبابة لعهد الصِّبا فيها وتذكار أَوَّلي
كأنَّ نسيمَ الريح في جنباته نسيمُ حبيب أو لِقاءُ مؤمَّل

ويقول أعرابي:

أيا حبّذا نجدٌ وطيبٌ ترابه تصافحه أيدي الرياح الغرائب
وعهدٌ صبا فيه ينازعك الهوى به لك أتراب عذابُ المشارب
تنال الرِّضى منهن في كل مطلب عِذابُ الثنايا وافراتُ الذوائب

فهذا الأعرابي يحن إلى نجد لأنه قضى فيه عهد الصبا ولكن مع أترابٍ له أحباء من فتيان وفتيات. وابن الرومي يؤيد هذا الرأي بقوله:

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ولبست ثوبَ العيش وهو جديد
فإذا تمثل في الضمير رأيتُه وعليه أغصان الشباب تميد

فالوطن عزيز لأن الشباب الذي تقضى فيه عزيز ولابن الرومي أيضاً:

ولي وطـن آلـيـت أن لا أبـيـعـه
وأن لا أرى غـيري لـه الـدهـرَ مـالـكـا
عـهـدتُ بـه شرخ الـشـبـاب مـنـعـماً
بـصـحـبـة قـوم أصـبـحـوا في ظـلالِكَـا
وحَـبَّـب أوطـانَ الـرجـالِ إلـيـهـم
مـآربِ قـضّـاهـا الـشـبـاب هـنـالكـا
إذا ذكـروا أوطـانَهم ذكـرتهـم
عـهـودَ الـصـبـا فيها فـحـنـوا لـذلـكـا
لـقـد ألـفـتـه الـنـفس حـتى كـأنـه
لهـا جـسـد إن بـان غـودر هـالـكـا

وعهد الصِّبا يتميز بمعاشرة الأحباب من الأتراب، وهي صلة تشد الإنسان إلى وطنه. كما قال تميم بن مَعَد:

ومـا بلد الإنسـان إلا الـذي بـه لـه سَكَن يـشتـاقـه وحـبيـب

وكان العرب إذا اغـتربوا عن وطنهم حنـوا إليه وكـانوا يقـولون: يحن الكريم إلى وطنه كما يحن البعيـر إلى عطنه. وكان العربي إذا سـافر عن وطنه يأخـذ معه حفنـة من تراب أرضـه يضعها في جـراب ويشمها كلما اشتاق إلى وطنه، وقـد يتنسم ريح الـوطن إذا غلبه الاشتيـاق، وما أجمل قول عبد الله بن الدمينة عن شمّ التراب:

رِدَا مـاءَ حُـزوى فـانـشَـحـا نِـضـوتيـكـما
عـلى حـينٍ يُخَـلي مـاءَ حُـزوى رقـيـبُـهـا
وسـوفـا الـثرى حتى يُجَـلِّـيء عنكـما
غليـلَ الصـدى بـردُ الحيـاض وطيبُها

وسَـوْف الثرى شمّه لتحسس رائحـة الحبيب أو رائحـة الـوطن، وكان العرب يسوفون التراب لمعرفة بعـدهم عن الوطن أو المكـان الذي

تركوه، ومنه المسافة، فكانوا يقدرون المسافة بشدة رائحة التراب وضعفها وهي في الأصل رائحة الوطن. وكانوا يتنسمون هواءَ الوطن من الرياح التي كانت تأتي من نحو الوطن. وقال العرب في ذلك من الأشعار الشيء الكثير، وكانوا يجمعون بين الدار والحبيب، ويقول أبو الغُول:

إذا الريح من نحو الحبيب تنسمت — بُعَيْد صلاة العصر طاب نسِيمها
وهبّت بأحزان لنا وتذكّرت — بها النفس أشجاناً توالى همومها
وظلّ يدق القلب إن نسمت له — وفاض لها عين طويل سجومها
وحنت كأن القلب مني وأقبلت — عليّ حديثات الهوى وقديمُها

ويقول كِلاب بن عُقبة:

بنفسي وأهلي مَن تجنبتُ داره
ومن لا أرى لي من زيارته بُدا
ومَن ردَّني إذ جئتُ زائرَ بيته
ولو زار بيتِي ما أُهين ولا رُدّا
ومَن لا تهب الريح من نحو أرضه
فتبلغني إلاّ وجدتُ لها بَردا

وتقول عُلَيّة بنت المهدي:

ومغتربٍ بالمرج يبكي لشجوه
وقد غاب عنه المسعِدون على الحبّ
إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه
تنشق يستشفي برائحة الركب

وهذا فيه شوق وحنين إلى الوطن. ويقال إن زوجة الشاعر البدوي جَبَها وهو يزيد بن عبيد الأشجعي قالت له يوماً: لو هاجرتَ بنا

إلى المدينة وكتبت اسمك في كتاب العطاء لكان خيراً لك. فأطاعها ونزح إلى المدينة بإبله فلما كان في حرة واقم من شرقي المدينة وقف يسقي إبله فحنت منها ناقة إلى وطنها وندّت وتبعتها بقية الإبل، ولم يستطع اللحاق بها، فقال لزوجته: هذه إبل لا تعقل تحن إلى أوطانها ونحن أحق بالحنين إلى الوطن منها، أنتَ طالق إن لم ترجعي، وقال:

قالت أنيسةُ دع بلادك والتمس	داراً بطيْبَةَ رَبةِ الآطام
تَكْتُبْ عيالَكَ في العطاء وتفترض	وكذاك يفعل حازم الأقوام
فَهَمَمْتُ ثم ذَكرتُ ليلَ لِقاحنا	بذوي عنيزةَ أو بِقُفّ بَشام
إن المدينةَ لا مدينةَ فالزمي	حِقْفَ السِناد وقبة الأرحام
يُجْلَبْ لكِ اللبنُ الغريض ويُنتزَعْ	بالعيس مِن يمنٍ إليكِ وشام
وتُجاوري النفرَ الذين بنبلهم	أرمي العدوَّ إذا نهضت مَرامِ

فهو يحن إلى وطنه لوجود الخير فيه ووجود الأجواد. وفي القرآن الكريم: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلّا قليلٌ منهم﴾[1] فجعل اللّهُ الجلاءَ عن الوطن بمثابة قتل النفس. وقال تعالى: ﴿وما لنا أن لا نقاتِلَ في سبيل الله وقد أُخرِجنا من ديارنا وأبنائنا﴾[2] فجعل القتال ثأراً للطرد والجلاء.

وكان يحيى بن أبي طالب في اليمامة وكان جواداً فركبه دين لم يستطع وفاءَه ففرّ إلى العراق من وجوه المداينين فأحسّ بمضض الغربة وحنّ إلى وطنه اليمامة فقال:

أقول لموسى والدموع كأنها
جداول فاضت من جوانبها تجري

---

(١) سورة النساء، الآية ٦٦.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٤٦.

ألا هل لشيخٍ وابنِ ستينَ حِجَّةً
بكى طرباً نحو اليمامة من عُذر

فقال: لقد يشفي البكاءُ من الجوى
ولا شيء عندي من عزاءٍ ولا صبر

تصبَّرتُ عنها كارهاً إذ هجرتها
وهجرانها عندي أمرّ من الصبر

كأنّ فؤادي كلّما لاح راكب
جناحُ غراب رام نهضاً إلى وكر

وذكر الفتح بن خاقان قال: ورد عليّ أعرابي من البادية نجديّ فصيح فبات ليلة عندي على سطح مشرف على بستان فسيح فيه صوت الدواليب، فقال: ما أشبه هذه بحنين الإبل في وطنه، فبكى، ثم أنشد:

بَكَرت تحِن وما بها وجدي ... وأحِنّ من شوقٍ إلى نَجد
فدموعها تحيا الرياضُ بها ... ودموع عيني أحرقت خدي

وسُئِل أعرابي عن عيشه في وطنه فوصفه ثم قال:

إذا ما أصبنا كلَّ يوم مُذَيْقةً ... وخمسَ تميراتٍ صغارٍ كوانزِ
فنحن ملوك الناس خِصباً ونعمةً ... ونحن أسود الناس عند الهزاهز
وكم مُتَمنّ عيشَنا لا يناله ... ولو ناله أضحى به حَقّ فابزِ

ولمّا قال الطائي:

لَا يَمنعنَّكَ خفضَ العيش في دَعَة ... نزوعُ نفس إلى أهل وجيران
تلقى بكلّ بلاد إن حللتَ بها ... أهلاً بأهلٍ وجِيرانا بجيران

قالوا: هذا ألأم شيءٍ قاله العرب.

الشيْب

كان العرب أحياناً يقسمون العمر قسمين: قسم الشباب وقسم المشيب، وأحلى أيام حياتهم عهد الشباب، فهو عهد الصبا والتصابي وحب الغواني وحب اللهو والخلود إلى اللذات، فإذا انقضى عهد الشباب انقضى العمر ولم يبقَ في الدنيا مستمتع، وقالوا في ذلك أشعاراً جميلة، يصفون بها حسن عهد الشباب، ثم رثوا الشباب بأشعار لم يرث العرب شيئاً بمثلها. بل إن العرب لم يرثوا شيئاً بمثل رثائهم للشباب. وقرنوا بين الشباب وسواد الشعر، بل كنوا عن الشباب بالسواد، وعن السواد بالغراب فإذا طار الغراب ذهب الشباب، وكنوا عن الكهولة والشيخوخة ببياض الشعر، وعن الشيخوخة بالبياض، وعن البياض بالبومة، وكنوا عن الشيب بالنهار وعن الشباب بالليل وفي ذلك أقوال لا تحصى، وليس في المستطاع الإتيان بالكثير منها، وقد نذكر منها البيت أو البيتين أو نحو ذلك. من ذلك منها قول أبي الغصن الأسدي:

أتأمل رجعة الدنيا سَفاهاً ... وقد صار الشباب إلى ذهاب
فليت الباكيات بكل أرض ... جُمِعن لنا فَنُحْنَ على الشباب

ولهارون بن علي بن يحيى المنجم:

الغانيات عهودهن ... إلى انصرام وانقضابِ
مَن شاب شُبن له المودة ... بالخديعة والكذاب

فانعم بهن وزند سِنك ... في الشبيبة غير خابي
ما دمت في روض الصبا ... وغصونه الخضر الرطاب
وافخر بأيام الصبا ... واخلع عِذارك في التصابي
واعط الشباب نصيبه ... ما دمت تعذر بالشباب

ولابن الرومي عن ليل الشباب ونهار الشيب:

كفى حزناً أن الشباب معجَّل ... قصير الليالي والمشيب مخلَّد
وعَزّاكَ عن ليل الشباب معاشر ... فقالوا: نهار الشيب أهدى وأحمد
فقلت نهار المرء أهدى لسعيه ... ولكنّ ظلّ الليل أندى وأبرد
محارُ الفتى شيخوخة أو منية ... ومرجوع وهاج المصابيحِ رِمدِد

وقد بالغ محمد بن حازم الباهلي حين قال:

لا تُكذَبنَّ فما الدنيا بأجمعها ... من الشباب بيوم واحد بدلُ

وكان أبو الأسود الدؤلي في شبابه وسيماً ترمقه عيون النساء ثم كبر، ودخل يوماً على معاوية فقال له: أصبحت جميلاً يا أبا الأسود. فابتسم وقال:

أفنى الشباب الذي ولّى وَبهْجَتَه ... كرّ الجديدين من آتٍ ومُنْطَلِق
لم يتركا ليَ في طول اختلافهما ... شيئاً أخاف عليه لذعة الحدق

وله قوله:

بان الشباب وولّى عنك باطله ... فليس يحسن منك اللهو والغزل
كفاك بالشيب عيباً عند غانية ... وبالشباب شفيعاً أيها الرجل

وفي معجم الأدباء للجاحظ:

أترجو أن تكون وأنت شيخ ... كما قد كنتَ أيامَ الشباب
لقد كذبتكَ نفسك ليس ثوب ... دريس كالجديد من الثياب

ومن لطيف قول ابن الرومي في فَقْد الشباب:

يا شبابي وأين مني شبابي ... آذنتني أيامه بانقضاب

لهف نفسي على نعيمي ولهوي ... تحت أفنانه اللِّدان الرطاب

ومُعَزٍّ عن الشبابِ مُؤسٍّ ... بمشيب اللِّدات والأصحاب

قلت لما انتحى يعد أساةً ... من مصاب شبابه كشبابي

ليس يأسو كلومَ غيري كلومي ... ما بِه ما بِه وما بِيَ ما بِي

ولأبي عمران الزاهد أقوال في الشباب والشيب من وجهة أخرى:

ذهب الشباب بجهله وبعاره ... وأتى المشيب بحلمه ووقاره

شتانَ بين مبعّد من ربه ... بغروره ومبشر بجواره

ما زلتُ أفرح بالشباب جهالة ... كالطِرف يمرحُ معجَباً بعذاره

وسحبت أثواب البطالة لاهياً ... وجَررتُ من بطر فضول إزاره

حتى تقلص ظله فتكشَّفت عوراته ... وبدا قبيح عواره

لم أحظ منه بطائل غير الأسى ... وتندم مني على أوزاره

والآن قد خط المشيب بمفرقي ... بمواعظ والحقّ من تذكاره

والنفس تركب غيها لا ترعوي ... عنه ولا تصغي إلى إنذاره

لهفي على عمر يمرّ مضيعاً ... يحصى علي بليله ونهاره

* * *

بعد هذه المقدمة نعود إلى وصف الشيب، فقد وصفوه بأنه ليل يصيح بجانبيه نهار، أو أنه برق لاح بليل، أو نار اشتعلت أو صباح أشرق، وصبح في غسق وغير ذلك. ويقول أبو بكر ابن دريد:

أرى الشيبَ مذ جاوزت خمسين دائباً
يدبُّ دبيبَ الصبح في غَسَق الظُّلَمْ

هو السقم إلا أنه غير مؤلم
ولم أرَ مثل الشيب سقماً بِلا ألم

ولابن خفاجة في صبح الشيب:

ضحك المشيب بعارضيه وأسفرا		فغدا وراح من الغواية مقفرا
والصبح أبهى في العيون من الدجى		وأعمّ إشراقاً وأبهجُ منظرا
والروض مرموق وليس برائق		حتى تصادفه العيون منوّرا

وهذه صورة جديدة عن الشيب. وإليكم صورة أخرى، وهي صورة رسمها ابن دريد في أول مقصورته حيث قال:

إمّا تري رأسيَ حاكى لونُه		طرةَ صبح بين أذيال الدجى
واشتعل المبيضّ في مسودّه		مثلَ اشتعال النار في جذل الغضا
فكان كالليل البهيم حلّ في		أرجائه ضوء صباح فانجلى

وهذه صورة أخرى رسمها الشافعي حيث قال:

خَبَتْ نار نفسي باشتعالِ مفارقي
وأظلم ليلي إذ أضاء شهابها
أيا بومةً قد عششت فوق هامتي
على الرغم مني حين طار غرابها

فالبومة البيضاء كناية عن الشيب والغراب كناية عن الشعر الأسود.

ولأبي حيّة النميري مثل صورة الغراب حيث يقول:

زمانَ الصبا ليت أيامنّا		رجعن لنا الخاليات القصارا
لياليَ رأسي غرابٌ غُداف		فطيَّره الشيب عني فطارا

ووصف الأعشى هذا الغراب بغراب الجهل حين قال:

وما طِلابك شيئاً لست تدركه
إن كان عنك غراب الجهل قد وقعا

* * *

هذه الصور التي ذكرناها تصور لنا حلول المشيب محلّ الشباب. ولدينا الآن صورة أخرى سنتوسّع في البحث فيها.

يقول دعبل الخزاعي:

لا تعجبي يا سَلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى
قد كان يضحك في شبيبته فأتى المشيب فقلّما ضحكا

ومثل ذلك عن ضحك الشيب قول مسلم بن الوليد:

مستعبِر يبكي على دِمنة ورأسه يضحك فيه المشيب

وقول السِّراج الورّاق، وفيه صورة أخرى:

وقالت يا سراج علاك شيب فدع لجديده خلعَ العذار
فقلت لها نهار بعد ليل فما يدعوك أنتِ إلى النِّفار

وابن دريد يعطي صورة ثالثة حيث يقول:

واشتعل المبيضّ في مُسودّه مثل اشتعال النار في جذل الغضا
فكان كالليل البهيم حلّ في أرجائه ضوء صباح فانجلى

أما الضحك والبكاء، فلهما صورة في معرض بكاء السماء كقول الحسين بن مُطير:

كلَّ يوم عن أقحوان جديد تضحك الأرض من بكاء السماء

ومثله قول نُصَيب الأصغر:

يبكي الغمام به فأصبح روضُه جَذلانَ يضحك بالجحيم ويزهر

وقول ابن المعتز:

ألحّت عليه كلُّ طَخياءَ ديمةٍ إذا ما بكت أجفانها ضحك الزهر

والصورة تنتقل من الضحك والبكاء إلى التبسم أو إلى تفتح الأزهار مع هطول المطر، أو نزول الدمع، كما قال ابن دريد:

تبسّم المزن وانهلّت مدامعه فأضحك الروضَ جفنُ الضاحك الباكي
وغازل الشمسَ نور ظل يلحظها بعين مستعبر بالدمع ضحاك

ويقول دُكَين الراجز:

جُنّ النبات في ذراها وزكا وضَحِك المزن به حتى بكى

ويعود الفرزدق إلى صورة الليل والنهار في قوله:

والشيب ينهض في الشباب كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار

ونسج على منواله مروان بن أبي حفصة:

والشيب إذ طرد السوادَ بياضُه كالصبح أحدث للظلام أفولا

والأزهار إذا ضحكت أي تفتحت كانت كالشيب إذا تفتح في الرأس الأسود، كقول بكر بن الأنباري:

لا يَرُعكِ المشيبُ يا ابنةَ عبد الله فالشيب حُلّة ووقار
إنما تحسن الرياض إذا ما ضحكت في خلالها الأنوار

ومثله قول القاضي علي بن عبد العزيز:

يا ديارَ السرور لا زال يبكي بك في مَضحك الرياض غمام

وأبلغ من ذلك قول أبي العلاء السَّرَدي:

مررنا على الروض الذي قد تبسّمت
ذُراه وأوداج الأبارق تُسفك
فلم نرَ شيئاً كان أحسن منظراً
من الروض يجري دمعه وهو يضحك

كقول أحمد بن عبد الله بن أبي العِصَام:

أما ترى الغيمَ كالباكي بأربُعه والأرضُ تضحك كالجذلان من فرح

وقول أحمد بن محمد الكحّال:

خـواتِمٌ من لُجـين　　　فصـوصهـا كـارِبـاءُ
وليس تضحـك إلّا　　　إذا بكتهـا السـماء

ولتميم بن مَعَدّ قولُه:

أمـا ترى الـرعـد بكى فـاشتكى　　　والـبرق قد أومض فـاستضحكـا
فاشرب على غيم كصِبـغ الدُّجى　　　أَضحـك وجـه الأرض لمـا بكى

ولتميم أيضاً:

وانجـلى الغيمُ بعـد مـا أضحـك الروضَ بكاءُ السحاب فيه بـوبل

ولإبراهيم الأَرْمَوِي:

أما ترى الأرضَ إذْ أبكى السحابُ بهـا
آذارَهـا ضـحـكـتْ إذْ جـاءَ نَـيْـسـانُ

وعن بكاء السحاب وضحـك الروض يقـول القاضي تـاج الدين المالكي:

فـابقَ في نعمـة وفي جمـع شمـلٍ　　　بِبنيـكَ الأفـاضـل الأَنجـابِ
مـا سرَت نفحةُ الأزاهـير تَـروِي　　　ضَحِكَ الروض من بكاء السحاب

ولابن المعتز أيضاً:

في كـلّ يـوم جـديـدُ روض　　　عـليـه دمـع الـنـدى حـبيسُ
ومـأتـم في الـسـماء يـبـكـي　　　والأرض مـن تحـتـه عـروسُ

ولسراج الدين الحكيم:

أراد إخفـاءَ مـا يـبديـه من كمـد　　　حتى لقـد كـان بـالسلوان يُتّهم
يبـدي التجلّد والأجفان تفضحـه　　　كالبرق تبكي الغوادي وهو يبتسم

وهذه الصور عن البكاء والضحك صور جاءت على سبيل ذكر الشيء بالشيء.

* * *

وأنشد ثعلب لرجل من بني كلاب عن أيام الشباب:

سقى الله دهراً قد تولّت غباطله
وفارقنا إلاّ الحُشاشةَ باطلُه
ليالِيَ خِدني كلّ أبيضَ ماجد
يطيع هوى الصابي وتُعصَى عواذلُه
وفي دهرنا والعيش في ذاك غِرّةٌ
ألا ليتَ ذاك الدهرَ تُثْنَى أوائلُه
بما قد غنينا والصِّبَا جلّ همّنَا
يمايلنا ريعانه وغمايله
وجَرّ لنا أذيالَه الدهرُ حِقبة
يطاولنا في غيه ونطاوله
فسقياً له من صاحب خذلت بنا
مطيتنا فيه وولت رواحله

كيف الوصول ؟

الوَصْـل في لغـة العاشقـين ضد الهجـر وضد الصـد، والوصـال مواصلة الحبيب لحبيبه وهو ضد الفراق والمجافاة، وهو التواصل. ولكنّ الـوِصال في لغتهم أشـدّ من الوصـل والمواصلة وأقـرب إلى معنى اجتماعِ الحبيبين اجتماعاً أدنى إلى الـفسقِ منه إلى العفاف ولو أنه قد يكون أحياناً أدنى إلى العفاف. وعرّف الخبزَأُرزي ذلك بقوله:

إذا مـا قـنـعـنـا بـالـتـواصـل في الهـوى
فـلا أنـت مـعـشـوق ولا أنـا عـاشـق
فـلا وصـلَ إلاّ أن يـكـون تـبـادل
ولاَ بـذل إلاّ أن يـكـون تـعـانـق
إذا لم يـتـمَّ الـوصـل والـبـذل في الهـوى
فـأُمّ الهـوى مـنْ بـعـد هـذيـن طـالـق

ولعلّ أقرب شيء في الوصال إلى الفسق قول سحيم عبد بني الحسحاس:

وبتنـا وسـادانـا إلى عَلجَانـةٍ — وحِقف تهاداه الريـاح تهاديـا
تُـوسّـدني كفـاً وتَثني بِمعصم — عليّ ونحوي رجلها من ورائيا
وَهبَّـت لنا ريحُ الشمالِ بِقَـرَّةٍ — ولا ثـوبَ إلاّ بـردهـا وردائيـا
وما زال بُردِي طيِّباً من ثيابهـا — إلى الحول حتى أنهج البُرْد باليا

ومن الذين بالغوا في ذلك الفرزدق بقوله:

ألاَ ليتنا نِمنا ثمانين حِجّةً ... تنام معي عُريانةً وأنامها
ضجيعَيْنِ مستورَيْن والأرضُ تحتنا ... يكون طعامي شمّها والتزامها

وقال الشعراء في ذلك أقوالاً مختلفة كقول الشاعر وهو العباس بن الأحنف:

لم يخلق الرحمن أحسنَ منظراً ... من عاشقين على فراشٍ واحد
متعانقين عليهما حُلل الرضى ... متوسِّدَين بمِعصم وبساعد

وقول علي بن الجهم:

سقى اللهُ ليلاً ضمّنا بعد هجعة ... وأدنى فؤاداً مِن فؤادٍ مُعَذَّبِ
فبِتنا جميعاً لو تُراق زُجاجة ... من الراح فيما بيننا لم تسرَّبِ

وقول ابن المعتز:

كأنني عانقت ريحانةً ... تنَفَسَتْ في ليلها البارد
فلو ترانا في قميص الدّجى ... حَسِبتنا من جسدٍ واحد

وقول البحتري:

ورُبَّةَ ليلة قد بت أُسْقَى ... بعينيها وكفَّيْها المُداما
قطعنا الوصلَ لَثْماً واعتناقاً ... وأفنيناه ضمًّا والتزاما

هذه صفة الوصال إذا كانت أدنى إلى الريبة، وهي أقصى صفات الوصل لأن الوصل يبدأ بالزيارة وينتهي بما هو أدنى إلى التهتك. وقد تدنو الديار من الديار فتسهل الزيارة وقد تنأى فتتعذر. فلا يزور حبيب حبيبه إلاّ في الخيال أو طائراً أو على جناح طائر، كما قال نُصَيب:

أتصبر عن سُعدى وأنت صبور
وأنت بحسن الصبر منك جدير
وكِدتُ ولم أُخلَق من الطير إن بدا
سنا بارقٍ نحو العراق أطير

أو كما قال العباس بن الأحنف:

بكيتُ على سِرب القطا إذ مررنَ بي
فقلتُ ومثلي بالبكاءِ جدير
أسِربَ القطا هل من يعير جناحه
لعلي إلى من قد هويت أَطير

وقد يقنع المحبّ من محبوبه بزيارة الطيف أو الخيال فتنوب تلك الزيارة عن الوصل كقول المثقال الشاعر:

قد زارني طيف من أهوى يُعَلِّلني
عند الصباح وخيط الفجر قد طلعا
فَطِرتُ شوقاً لعلمي أن قُبْلَتَه
في النوم تُحدِث لي في وصله طمعا

وقول البحتري:

وإني وإن ضنّت عليّ بوصلها
لأَرتاح منها للخيال المؤرِّق
يَعِزّ على الواشين لو يعلمونها
ليالٍ لنا نزدار فيها ونلتقي
فكم غُلّةٍ للشوقِ أطفأتُ حرَّها
بطيفٍ متى يَطْرُقْ دُجَى الليل يَطْرُق

وأبلغ من ذلك وأوضح قول المُرْتَضَى:

ألاَ يـا آبـنـةَ الحَـيَّـينْ مـا لي ومـا لَـكِ
ومـاذا الـذي يـنـتـابـني مـن خـيـالِـكِ
هَـجَـرتِ وأنـتِ الهـمّ إذ نـحـن جِـيرة
وزُرتِ وشَـحْطُ دارُنـا مـن ديـاركِ
فـما نـلتـقـي إلاّ عـلى نـشـوة الـكـرى
بـكـلّ خُـداريّ مـن الـليـل حـالِـك
يُـفَـرّق فـيـما بـيـنـنـا وَضَـح الـضُّـحَى
وتَجـمـعـنـا زُهـر الـنـجـوم الـشـوابـكِ
ومـا كـان هـذا الـبَـذل منـكِ سـجيـةً
ولا الـوصـل يـومـاً خـلّةً مـن خـلالـك
ولـيـلةَ بـتـنـا دون رمـلةِ مُـربِـخٍ
خـطوتِ إلـيـنـا عـانِـكـاً بـعـد عـانـك
ومـا كـان من يستـوطن الـرمـل طـامعـاً
وأنـتِ عـلى وادي مِـنىً في مـزارِك

ويفـرح المحب بزيـارة الطيف والخيـال. وقد تتعـذر هذه الـزيارة ويجد الطيف مشقة في الوصول إلى المحبوب ويقطع السهل والجبل والصحراء حتى يصل، ويقول وضاح اليمن:

طرق الخيالُ فمـرحبـاً سهـلاً — بخيال من أهدى لنـا الوصـلا
وسَرَى إليّ ودون مـنـزلـه — خَمسٌ دوائـمُ تُعْـمِـل الإبـلا
يـا حَبّـذا من زار معتسِـفـاً — حَـزْنَ البـلادِ إليَّ والسّهـلا
حـتى ألمّ بـنـا فـبِـتّ بـه — أغنى الخـلائق كلهم شَمـلا

وكـانـوا يتعجبـون من وصـولِ الـطيف مـع هـذه المشقـات ومن اهتدائه إلى منزل الحبيب، ومن ذلك قول جعفر بن عُلبة الحارثي وكـان سجيناً في مكة:

هواي مع الركب اليمانين مصعِد جنيب وجُثماني بمكة موثق
عجبت لمسراها وأنّى تخلصت إليّ وباب السجن دوني مُغلق
ألمّت فحيّت ثم قامت فودّعت فلما تولّت كادت النفس تَزهَق
فما بَرِحت حتى وَدِدت بأنني بما في فؤادي من دم الجوف أشرق
عجبت لمسراها وسِرب سرت به بعيدَ الكرى كادت له الأرضُ تُشرِق

ورأيت لأعرابيّ في نجدٍ يقول عن الطيف وكيف اهتدى، أو هو لِلْعُجَيْر السّلولي الشاعر:

ألَا طرقت جُملٌ وبيني وبينها
مهامهُ أمراتٌ وداويَّةٌ قفْرُ

فقلتُ لها كيف اهتديتِ لصاحب
ونِضْوٍ طواه السير مُمساهما وَعْر

على أنني أهواكِ ما هَبَّت الصَّبا
وما سَكَنت سلمى وأكنافها العُفْرُ

وما هتفت يوماً لإلِف حمامة
على بانة أفنانُها عُطَّفٌ خُضْرُ

فدومي على العهد الذي كان بيننا
فما يُبتغَى مني ولا منكِ لي عُذر

ويقول أبو بكر محمد الأصفهاني:

وقد كنتُ لا أرضى من النَّيل بالرِّضا
وأَقبلُ ما فوق الرّضا مُتلوِّما

فلما تفرَّقنا وشطت بنا النوى
قَنِعتُ بطيفٍ منكِ يأتي مسلِّما

فساعَفَني وَهْناً خيالُكِ في الكرى
وزار وحيّى ثم قام فسلَّما

بـنـفسي وأهـلي مِـن خـيـالٍ ألمّ بي
فـداوى سَـقـامـي ثـم بـان فـأسـقـما

فـوا حَسْرَتـا لم أدرِ أنّى اهـتـدى لـنـا
ولم أدرِ إذ ولّى إلى أيـن يمّـمـا

رعـاه ضـمـانُ الله في كـل حـالـة
وإن ذرفـت عـيـني لـفـرقـتـه دمـا

فالطيف يتجشم المصاعب ويقاسي المشقات ويقطع السهل والوعر ويجتاز الصحراء ليلتقي بالحبيب ليلاً ولو لمدة قصيرة يتناجيان فيها، وهذا دليل على كلف المحبوب بالمحب. وهذه صورة أخرى لزيارة الطيف من هذا القبيل:

طرقتكَ زينبُ والركاب مناخة
بين المخارم والندى يتصبب

بِثنيَّة العلمين وهناً بعدما
خفَقَ السِّماك وعارضته العقرب

وتحيّةٌ وكرامةٌ لخيالها
ومع التحية والكرامة مرحب

أنّى اهتديتِ ومن هداكِ ودوننا
جبلٌ فرملةُ عالج فالمَرْقَب

إن كان أهلك يمنعونكِ رغبةً
عني فأهلي بي أَضَنُّ وأرغب

ويقول الحُطيئة:

وأنّى اهتدتْ والدوُّ بيني وبينها
وما كان ساري الدوّ بالليل يهتدي

والدوّ ما بين البصرة واليمامة، وهو القفر.

وهذا معناه أن الحبيبة هي التي تزور في المنام وترسل طيفها نيابةً عنها شوقاً إلى المحب. وما دور المحب في كلّ ذلك؟ هل هو يزور الحبيبة بطيفه أو خياله؟ أم كيف يفعل إذا اشتد به الشوق ولم يهتد الحبيب إلى زيارته؟ المحب لا يزور الحبيبة بطيفه ولكنه يرسل من يزورها نيابة عنه، فهو يُهدي إليها سلامَه وتحياته على متن الريح أو البرق أو السحاب أو يحمّل رسولاً رسائلَه إليها أو ركباً في طريقهم

إليها. وقال الشعراء في هذا الشيء الكثير. ويقول الورد بن الورد العبسي:

ألا ليتَ أن الريح في ذاتِ بيننا
رسولٌ فتطوي بيننا بلداً قفرا
فتُخبِرَها ماذا لقينا من الهوى
وتُخبرَنا عنها علانيةً جَهرا

والمشهور أيضاً أبيات قيل إنها لماني الموسوَس:

حجبوها عن الرياح لأني قلت يا ريح بلغيها السلاما
لو رَضوُا بالحجاب كان ولكن منعوها يوم الرياح الكلاما
فتنفستُ ثم قلت لطيفي ويك لو زرت طيفها إلماما
حَيِّها بالسلام سِراً وإلّا يمنعوها لشقوتي أن تناما

وندر أن يزور طيف المحب. أمّا البروق فتأتي من نحو الحبيب فتزيد شوق المحبّ لهيباً. وندر أن يحمل البرق تحيات المحب إلى المحبوب وإنما يحمل تحيات المحبوب إلى المحب وذكرياته.

والبروق مدعاة للشوق والحنين، كقول رامة بنت الشّمّاخ:

أُلام على نجدٍ ومن تكُ دارُه
بنجد يُهيِّجْه الشوق شيء يُرايعُه
تُهيِّجْهُ جَنوبٌ حين تبدو بنشرها
يمانِيَةً والبرق إذ لاح لامِعُه

وقول امرأة من طيّىء:

إذا ما صَبِيرُ المزن أومض برقه
ببغداد لم تَبْلِج بعيني بوارقه

ولكن متى ما تبدُ منه مُخِيلةٌ
بنجدٍ فذاك البَرقُ لا بدّ شائقه

وقال سُحيم بن المحرَّم:

ألا أيها البرق الذي بات يرتقي
ويجلو دُجَى الظلماء أذكرتَني نجدا
وهيَّجْتَني من أذرعاتٍ ولا أرى
بنجدٍ على ذي حاجة طَرِب بُعدا
ألم تر أن الليل يقصر طوله
بنجدٍ وتزداد الرياح بها بردا

وقال الأحوص:

أصاح ألم تَحزنكَ ريحٌ مريضة
وبرقٌ تِهامٍ بالعقيقَين لامِعُ
فإنّ غريبَ الدار مما يشوقه
نسيم الرياح والبروق اللوامع
لعمرُ ابنة الزيدي إنّ ادّكارَها
على كل حال للفؤاد لَرائع
وقد كنت أبكي والنوى مطمئنة
بنا وبكم مِن عِلم ما البَين صانع

وقال رجل من بني أبي بكر بن كلاب:

ألَا يا سنا برقٍ علا قُلل الحمى
لِيهَنِكَ مِن برق عليّ كريمُ
لمعتَ اقتداءَ الطير والقوم هُجَّع
فَهيَّجتَ أسقاماً وأنت سليم

فبِتّ بحدّ المِرفقينِ أشِيمُه
كأني لبرق بالسَّتَار حميم
فهل من مُعيرٍ طرف عينٍ جَليّة
فإنسان عين العامريّ كليم
رمى قلبَه البرق المُلألىء رَمْيَة
بذكر الحِمى وهناً فكاد يهيم

ومن أجمل ما قيل في الرسول قول ابن العَجلان عن محبوبته هند:

خليليّ زورا قبل شحط النوى هندا
ولا تأمنا من دار ذي لطَفٍ بُعْدا
ولا تعجَلا، لم يَدْرِ صاحب حاجة
أَغَيًّا يُلاقي في التعجل أم رشدا
ومُرّا عليها بارك الله فيكما
وإن لم تكن هند لوجهيكما قصدا
وقولا لها: ليس الضلال أجازنا
ولكننا جُزنا لنلقاكم عمدا

وهذه الأبيات منسوبة إلى المرقش الأكبر. ولكن المرقش الأكبر له أبيات من المعنى والقافية عن الرسول يقول فيها:

تخيرتُ من نَعمانَ عودَ أراكةٍ
لهندٍ فمن هذا يبلّغه هندا
ستبلغ هنداً إن سلمنا قلائصٌ
مهارٌ يقطّعن الفلاةَ بنا وَخْدا
فلما أنخنا العيسَ قد طار سيرها
إليهم وجدناهمْ لنا بالقِرى حُشدا

فناولتُها المسواكَ والقلب خائف
وقلت لها يا هند أهلكتِنا وجدا
فمدّت يداً في حسن دلّ تناولاً
إليه وقالت ما أرى مثلَ ذا يُهدى

و مثله قول علي بن الجهم وكان في السجن:

خليليّ ما للحب يزداد جِدَّةً
على الدهر والأيام يبلى جديدُها
وما لعهود الغانيات ذميمةً
وليلىٰ حرام أن تُذَمّ عهودها
ألّمت وجُنْح الليل مُرخٍ سُدولَه
وللسجن أحراس قليل هجُودها
فقلت لها أنّى تجشمتِ خُطةً
يُحَرِّج أنفاسَ الرياح ورودُها
فقالت أطعنا الشوق بعد تجلّدٍ
وشرّ قلوب العاشقين جليدها
وأعلنت الشكوى وجالت دموعها
على الخد لما التفّ بالجِيدِ جِيدُها
فقلت لها والدمع شتّى طريقه
ونار الهوى بالشوق يُذكى وقودُها
إذا سَلِمت نفس الحبيب تشابهت
صروف الليالي سهلُها وشديدها
فلا تجزعي إمّا رأيتِ قيودَه
فإن خلاخيلَ الرجال قيودها

مشي النساء

وصف الشعراء العرب النساء من أوجه عديدة. وصفوا القَدّ والشعر والوجه والصدر والخصر والأرداف والسيقان، ووصفوا بصورة خاصة المشي لأن فيه يتجلى جمال القد ويظهر فيه حسن القامة وتناسب الخصر مع الأرداف وانتصاب القوام مع لطافة الحركة وتناسقها. ولم يستحسنوا مشي القصيرة البالغة القصر ولا مشي الطويلة الفاحشة الطول. ولم يعجبهم مشي العجفاء أو الرسحاء ولا مشي السمينة المفرطة في السمن. ولكنهم على العموم فَضلوا الطويلة المعتدلة الطول ذات الخصر الأهيف الممتلئة الأرداف المجدولة الخلق الناهدة الثديين الجيداء. وفضلوا المشي الوئيد ليس فيه عجلة بل فيه انسياب كانسياب الأفعى وفيه تهادٍ كتهادي القطا.

وللأعشى وصف مشهور لمشي المرأة حيث يقول:

غراء فرعاء مصقول عوارضها
تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوَجِلُ
كأنّ مشيتها من بيت جارتها
مَرّ السحابة لا ريث ولا عجل

وللأعشى أيضاً يصف الخصر:

صِفر الوشاحين ملء الدرع بَهْكَنَةً
إذا تأنّى يكاد الخصر يَنخزِل

وجمعوا في الوصف بين دقة الخصر وامتلاء الأرداف وبين القامة المنتصبة كعود القنا ووعورة الأرداف، كقول ذي الرمة:

ترى خلفها نصفاً قناة قويمة ونصفاً نَقىً يرتجّ أو يتمرمر

أو كقول الحارث بن خالد المخزومي:

غَرْثانُ، سِمْط وشاحها قلِق رَيّان من أردافها المِرْطُ

وسنعود إلى وصف الخصر بالتفصيل فيما بعد. ولنتابع الآن الكلام على المشي. فالكميت بن زيد يقول:

يمشين مشيَ قطا البطاح تأوّداً قُبَّ البطون رواجحَ الأكفال
فكأنهنَّ إذا أردن زيارتي يقْلَعنِ أَرجُلَهنّ من أوحال

وأوضح منه قول ابن عائشة:

فكأنهنّ إذا أردن خطاً يقلعن أرجلهن من وحل

وهذا شبيه يقول الأعشى عن (الوجي الوَحِل).

ويقول ذو الرمة في مثل ذلك:

قِصار الخطا يمشين هوناً كأنما
دبيب القطا بل هُنَّ منهن أوجل

ويقول عبد الله بن عجلان:

أتت بين أتراب تمايس إذ مشت
دبيب القطا أو هنّ منهن أقطف

ويقول الحطيئة:

حَصَانٌ لها في البيتِ زي وهيئة ومشيٌ كما تمشي القطاة قَطوفُ

وذكروا ارتجاج الأرداف كما ذكروا اهتزاز القد، كقول ذي الرُّمة:

إذا الخزّ تحت الحضرميات لُثْنَه ... بمرتجة الأرداف مثلِ القصائمِ
لَحَفْن الحصى أنيارَه ثم خُضْنَه ... نُهوضَ الهِجانِ الموعِثاتِ الجواشِمِ
رويداً كما اهتزت .رِماح تسفَّهت ... أعالِيَها مرُّ الرِياحِ النواسمِ

ويقول ابن ميادة ويعدد أوصافه:

منعمة الأطراف هِيفٌ خصورها ... كواعبُ تمشي مِشيةَ الخيل في الوحل
وأعناقها أعناق غزلان عالج ... وأعينُها من أعين البقر النُّجْل
وأثلاثها السفلى بُراديّ سَاحل ... وأثلاثها الوسطى نقىً من نقى الرمل
وأثلاثها العليا غصون فروعُها ... عناقيد تُغذى بالدِّهان وبالغِسْل

ولأشجع السلمي في تموّج الجسم في الثياب:

وجارية لم تسرق الشمسُ نظرة ... إليها ولم يعبث بأيامها الدهر
وماجت كموج الماء بين ثيابها ... يجور بها شطر ويعدلها شطر

ووصفوا مشي النساء على صور مختلفة، ومن ذلك قول الشماخ ابن ضِرار:

تخامص من برد الوشاح إذا مشت
تخامصَ حافي الخيل في الأمعز الوَجي

ويقول ابن مقبل عن المشي واهتزاز الجسم الناعم:

يَهْزُزن للمشي أوصالاً منعمة ... هَزَّ الجنوبِ ضُحًى عَيْدان يَبرينا
أو كاهتزاز رُدَيْنيّ تداوله ... أيدي التِّجار فزادوا متنه لينا
يمشين هَيْلَ النَّقا مالت جوانبه ... ينهال حيناً وينهال الثرى حينا

ويقول العباس بن الأحنف:

شمس مقدَّرة في خلق جارية ... كأنما كشحها طي الطوامير
كأنها حين تمشي في وصائفها ... تخطو على البيض أو خُضر القوارير

ويقول كشاجم في اهتزاز الجسم الناعم:

وتهتز في مشيها مثلما ... تهُزّ الصَّبا غُصُناً ناعما

ويقول عمر بن أبي ربيعة عن الغصن الناعم (في زينب بنت موسى):

تمشي الهوينا إذا مشت قُطُفاً ... وهي كمثل العُسلوج في الشجر

ويقول عمر بن أبي ربيعة عن مشية الأيم أي الأفعى (في لبابة):

خرجت تأطر في الثياب كأنها ... أيم يسيب على كثيب أهيلا

ويقول العلاء بن موسى الجُهَنْي:

وجاءتْ كَسَلِّ السَّيْفِ لَوْ مَرَّ مَشْيُها

على البيض أمسى سالماً لم يُخَضَّدِ

وتكلموا عن مشي المرأة وهي تسير مثقلة تكاد يعتريها ضيق النفس، كقول عمر بن أبي ربيعة:

تمشي الهوينا إذا مشت فُضُلاً ... مشيَ النزيف المخمور في الصَّعَد

ويقول المرار بن منقِذ (في المفضليات):

وإذا تمشي إلى جاراتها ... لم تكد تبلغ حتى تنبهر

ويقول عبد الله بن عمرو العرجي (الحماسة لابن الشجري):

لو خُلِّيت لمشت نحوي على قدم ... تكاد من رقةٍ للمشي تنفطر

ويقول عمر بن أبي ربيعة عن التمهل في المشي:

أبصرتها ليلةً ونسوتُها ... يمشين بين المقام والحَجَر

يَرْفُلْنَ في الريط والمروط كما ... تمشي الهوينا سواكنُ البقر

وقالوا عن النهود وعلاقتها بالأرداف والبطون والظهور، وقالوا إن من حسن قدّ المرأة أن ثوبها يجب أن ينسدل عليها بحيث يمس رأسي

ثدييها ومقدم بطنها ويمس من الخلف ظهرها وروانف ردفيها مساً خفيفاً، كما قال بعضهم:

أبت الروادف والثدي لِقمصها مسّ البطون وأن تُمسّ ظهورا

ولكنّ الشعراء، أكثروا من وصف النهود والبطون، وأكثروا بصورة خاصة من وصف الخصور والأرداف واعتبروا جمال الخصور مع الأرداف من صفات جمال جسم المرأة، ويقول عمر بن أبي ربيعة:

يتقابلن كالبدور على الأغصان في مثقل من الأرداف
بخصور تحكي خصور الزنابير ضِعافٍ همَمن بالانقصاف

ومثله قوله إسحاق الموصلي:

ظباءٌ كاليعافير كنُوس في المقاصير
وأدْبَرْن بأعجاز كأوساط الزنابير

فالخصر دقيق والردف ثقيل، كما قال ابن الطثرية:

عقيلية أما مَلاثُ إزارها فَدِعْصٌ، وأما خصرها فَبَتِيلُ

وإذا كان الردف ثقيلاً والخصر دقيقاً فإنه يخشى على الخصر أن ينبتر، كما أنشد ابن دريد:

قد قلتُ لَمّا مرّ يخطر ماشياً
والردف يجذب خصرَه من خلفه
يا مَن يُسَلِّمُ خصره من ردفه
سَلِّم فؤادَ محبِّهِ من طرفه

ويقول الزاهي في الخصور والأرداف:

أرداف عِين وأوساط الزنابير فوق المعاقد تطوى كالطوامير
أنقاء أكثبة من فوقها قصَب ذُبل الخصور بشدات الزنابير

ولكنهم تكلموا عن ثِقل الأرداف وكيف أنها تقعد عن القيام، كقول الأحوص:

قَطوفُ المشي إذ تمشي ... ترى في مشيها خَرَقا
وتثقِلها عجيزتها ... إذا قامت لِتنطلِقا

وتقول شمسة الموصلية:

هيفاء إن قال الشباب لها انهضي
قالت روادفها اقعدي وتمهّلي

ويقول أبو حفص القرطبي:

لها ردف تعلّق في لطيف ... وذاك الردف لي ولها ظلوم
يعذبني إذا فكرت فيه ... ويتعبها إذا رامت تقوم

ويقول عمر بن أبي ربيعة:

هيفاء لفّاء مصقولٌ عوارضها ... تكاد مِن ثقل الأرداف تنبتر

ويقول أيضاً:

قَطوفٌ ألوفٌ للحجال غريرة ... وثيرة ما تحت اعتقاد المؤزَّر
من البيض مِكسال الضحى بُخْتُرية ... ثَقَالٌ متى تنهضْ إلى الشيء تفترُ

والقطوف هي التي تمشي بخطوات قصيرة. والثقال هي ثقيلة الأرداف وهي الوثيرة معقد الإزار.

وله في وصف (بَشْرة):

إني رأيتكِ غادةً خُمْصانةً ... رَيّا الروادف لَذّةً مِبشارا

والخُمصانة هي الضامرة الخصر، وريّا الروادف هي الممتلئة الروادف. ويقول في نُعْم:

ونبيلٌ عبْلُ الروادف كالقَوْز من الرمل قد تلبّد فَعْمُ

والقوز من الرمل كالكثيب. ويقرب من ذلك قول ذي الرمة:

ضِنَاكٌ بَخَنْداةٌ كأنَّ حِقابَها إذا انجردت من كل درع ومِفْضَلِ
على عانكٍ من رمل يَبرين بَلَّهُ أهاضيبُ تلبيد فلم يتهَّيل

والضِّنَاك هي الملززة الخلق، والبخنداة هي المرأة الرَّيّا التامةُ القَصَب. والحِقاب هي الروادف، والعانك من الرمل هو الرملة المتعقدة.

ويقول الحطيئة عن مشي القطا:

إذا همّ بالأعداء لم يثنِ همَّه كَعَابٌ عليها لؤلؤ وشنوفُ
حَصانٌ لها في البيت زيٌّ وبهجة ومشيٌ كما تمشي القطاة قَطوفُ

ويقول بشار عن الأرداف:

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لم تُجْف طولاً ولا أزرى بها القِصَرُ

وهذا مثل قَول كعب بن زهير:

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يُشتكى قِصَرٌ منها ولا طولُ

الحديث والمحادثة

الحديث أو المحادثة مظهر من مظاهر المدنية منذ أقدم عصورها. ويختلف الحديث باختلاف المتحدثين وباختلاف الغرض منه، وقد رأيت كتباً عن الحديث مع الأولاد ومع الفلاسفة ومع رجال الدين ومع العلماء، وكلّ حديث يختلف عن الآخر، ويختلف من حيث السهولة أو الصعوبة في الموضوع ومن حيث الأسلوب والطريقة مع الولد أو الفيلسوف أو رجل الدين أو العالم. ومع ذلك فقد وجدت لدى الجميع أن أطرف حديث وأمتعه حديث النساء.

أدرك العرب قيمة الحديث فتكلموا عنه ووصفوه وعدُّوه من قبيل المؤانسة ومن قبيل كرم الضيافة. والسَّمر والتعلل ضربان من الحديث.

قال عمرو بن مُضاض:

كأن لم يكن بين الحَجون إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يَسْمُر بمكة سامر

وتكلموا عن أدب الحديث وعن الإصغاء للحديث، ووصف أبو تمام الصديق الصدوق بأنه يصغي لحديثك ولو أنه يعلمه فقال:

من لي بإنسان إذا أغضبتُه ... وجهلتُ كان الحلم ردّ جوابه

وإذا طربتُ إلى المُدام شربتُ من ... أخلاقه وسكرت من آدابه

وتراه يصغي للحديث بقلبه ... وبسمعه ولعلّه أدرى به

وابن الرومي يستطيب الحديث لأنه حديث حيث يقول:

وسَئِمتُ كلَّ مآربي ... فكان أطيبَها غثيث
إلّا الحديثَ فإنه ... مِثلُ اسمه أبداً حديث

ومن آداب الضيافة عند العرب أن يؤنس المضيف ضيفه بحديث ممتِع، وهذا الحديث عندهم من القِرى، ويقول عروة بن الورد أو مسكين الدارمي:

لِحافي لحاف الضيف والبيت بيته ... ولم يُلهِني عنه غزال مُقَنَّع
أُحدّثه إن الحديث من القِرى ... وتعلم نفسي أنه سوف يَهْجَع

ومنه قول الشاعر واسمُه غير معروف:

إنك يا ابنَ جعفرٍ نِعمَ الفتى ... ونِعم مأوى طارق إذا أتى
وربّ ضيفٍ طرق الحيَّ سُرًى ... صادف زاداً وحديثاً ما اشتهى
إنّ الحديثَ طرف من القِرى ... ثُمّ اللحاف بعد ذاك في الذُّرى

ومع أن العرب استمتعوا بالحديث ووجدوا لذة بالسمر وانتدوا في نواديهم، غير أنهم لم يستطيبوا حديثاً كحديث النساء، فهو عندهم لا يُمَل حتى ولو أعيد أو طال أو قصر، كما وصفه ابن الرومي:

وحديثها السحر الحلال لو آنّه ... لم يَجنِ قتلَ المسلم المتحرز
إن طال لم يُمْلَل وإن هي أوجزت ... ودّ المحدَّث أنها لم توجز
شرك العقول ونُهزةٌ ما مثلُها ... للمطمئن وعُقلة المستوفز

وقال العباس بن الأحنف:

وحدّثتني يا سعد عنها فزدتَني ... جُنوناً فزدني من حديثك يا سعد

وقال أبو محمد ابن أبي أمية:

وحَـدّثني عن مجلسٍ كنتِ زينَـه ... رسـولٌ أمـينٌ والنسـاء شُهـودُ
فقلتُ له: رُدّ الحديثَ الذي مضى ... وذِكْـرَكِ من بـين الحـديث أُريـد
أنـاشِـدُه بـالله إلاّ أعَـدْتَـه ... كـأني بـطيء الفهم عنـه بعيـد

ومثل ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي:

كُـرُّوا الأحـاديـث، عـن لـيـلى إذا بَـعُـدت
إن الأحـاديـث عــن لـيـلى لـتُـلْهِـيـني

ومثله قول كثيّر عزّة:

نـظرت إلـيـهـا نـظرة وهـي عـاتـق
عـلى حـين أن شـبَّـت وبـان نهودُهـا
مـن الخـفـراتِ الـبـيضِ ودّ جـليـسُـهـا
إذا مـا انـقـضت أحـدوثـة أن تُـعـيـدَهـا

والذين وصفوا حديث النساء كثيرون. وصفوه بالخمر أو بالسحر أو بـالـدّر أو اللؤلؤ أو المـرجـان، واشتهـر من بينهم بشار وأبـو حية النميري. ومن ذلك قول النابغة الذبياني:

ولـو أنها عـرضت لأشمطَ راهب ... عَبَـد الإلـه صَرُورة مـتـعبِّـدِ
لـرنـا لبهجتهـا وحسنِ حـديثهـا ... ولخـالَـهُ رشـداً وإن لم يـرشُـدِ

ومثله قول ربيعة بن مقروم:

لـو أنها عـرضت لأشمط راهب ... عـبـد الإلـه صرورة يتبـتّـل
لـرنـا لبهجتهـا وحسن حـديثهـا ... ولهـمّ مـن تـامـوره يـتـنـزل

ويقول القطامي:

وفي الخـدور غـمامات بَـرَقْنَ لنـا ... حتى تصيّـدْننا مِنْ كـلّ مُصـطاد
يقتلننـا بحـديث ليس يعلمـه ... مَن يتقـين ولا مكنـونـه بـادِ

ويقول ذو الرُّمّة:

وإنا ليجري بيننا حين نلتقي
حديث له وشي كوشي المطارف

حديث كوقع القطر في المحل يشتفي
به مِن جوى من داخل القلب لاحف

ووصفوا حديث النساء بغير ذلك إذ وصفوه بالعَسَل، كقول أبي ذؤيب الهذلي:

وإن حديثاً منك لو تبذلينه جنى النحل أو ألبانُ عُوذٍ مطافلِ

أو كقول جِران العَود:

فنِلنا سُقاطاً من حديث كأنه جنى النحل أو أبكار كرم يقطّف

فالحديث كالعسل أو الخمر، كقول أبي حية النميري:

حديث إذا لم تخش عيناً كأنه
إذا ساقطته الشهد أو هو أطيبُ

لو آنك تستشفي به بعد سكرة
من الموت كانت سكرة الموت تذهبُ

ويصف بشار الحديث وصفاً آخر فيقول:

وكأنّ رجعَ حديثها قِطَع الرياض كُسِين زهرا
وكأنّ تحت لسانها هاروتَ ينفث فيه سحرا

ووصفوا الحديث باللؤلؤ المنظوم أو اللؤلؤ المتساقط، كقول سُدَيف:

وإذا نطقن تخالهنّ نواظماً درًّا يفصِّل لؤلؤاً منظوما

ويقول مروان بن أبي حفصة:

تساقط منهن الأحاديثُ غضّة تساقط درّ أسلمته المعاقِدُ

وقيل:

هي الدر منثوراً إذا ما تكلمت وكالدر منظوماً إذا لم تكلَّمِ

والبحتري يقول:

ولما التقينا واللِّوى موعدٌ لنا تعجَّب رائي الدر حسناً ولاقِطه

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤٍ عند الحديث تساقطه

بهذا وأمثاله وصف الشعراء طيب حديث النساء، ولكن ماذا كان العرب يرون في محادثة النساء. هل كانوا لا يرون فيها بأساً حتى لو خلا الرجل بمحدثته، أم كانوا يتأثمون من ذلك وينكرونه؟ قال العرب عن الرجل الذي يلازم محادثة النساء: هو حِدث نساء، وقالوا عنه: هو خِلْبُ نساء إذا كان يستهوي النساء بحديثه كما كان بشار الأعمى. وقالوا عنه: هو رامي الزوائل إذا بلغ به الحال فوق ذلك. ويظهر من هذا التصنيف اللغوي أن الرجل كان يتحدث إلى النساء علناً أو على انفراد ولم يروا في ذلك بأساً. ويحكى عن الشاعر الأبيرد اليربوعي أنه كان يجالس امرأة رجل من بني عجل اسمه سعد، وكان الأبيرد شاباً جميلاً وسعد شيخاً قبيحاً، ودام الأبيرد على مجالسته للمرأة ومحادثته لها حتى شهر بذلك وتحدث الناس به، فجاء الأبيرد رجال من بني يربوع وقالوا له: مالك تتحدث إلى امرأة الرجل؟ فقال: وما بأسٌ بذلك؟ هل خلا عربيّ منه؟ فقالوا له: دع الرجل وامرأته ولا تعاودها ولا تجلس إليها، فانقطع عنها.

وهذه الحكاية دليل على أن العرب ما كانوا يرون بأساً في محادثة النساء. ويحكى عن عمر بن أبي ربيعة، وكان كثير التعرض للنساء يحادثهن، أنه بينما كان يطوف بالبيت رأى امرأة من أهل العراق أعجبه

جمالها فمشى معها حتى عرف موضعها، ثم أتاها فحادثها وخطبها فقالت له: إن هذا لا يصلح ههنا، ولكن إن جئتني إلى بلدي وخطبتني إلى أهلي تزوجتك. ثم ارتحلت المرأة إلى العراق ولحق بها عمر حتى ورد العراق فراسلها واجتمع بها وخطبها فقالت له: إنها كانت متزوجة بابن عمّ لها ولها منه أولاد، وشرط عليها أن لا تتزوج بعده وإلّا حرمت من المال الذي أوصى لها به.

وذكروا عن عمر بن أبي ربيعة مجالس كثيرة مع النساء، كما ذكروا عن نصيب وكثيّر والأحوص مجلساً من هذا النوع فيه بسط وغناء، وكانت هذه المجالس كثيرة في المدينة، وكان لكل شاعر تقريباً مجلس مع النساء فيه غناء أو إنشاد أشعار.

ويحكى عن أبي الأسود الدؤلي، وكان في أيام معاوية، أنه كان وهو في البصرة يعرف جارة له كانت جميلة بَرْزة وكان يجلس معها ويتحدث، وتكرر ذلك منهما، فعرضت عليه الزواج، وكان يظن بها خيراً، فلما تزوجها وجدها خلاف ما ظن فطلقها وهجاها.

ورأى الحارث بن خالد المخزومي أم بكر ترمي الجمار في الحج وكان في خدّها خال ظاهر وكانت جميلة فأرسل إليها يسألها أن تأذن له في الحديث فأذنت له، فكان يأتيها يتحدث إليها ودام على ذلك حتى انقضى الحج. ولعمر بن أبي ربيعة مجلس مع أم محمد بنت مروان بن الحكم في مكة وكان يأتيها يتحدث إليها.

ويحكى عن العُجَير السلولي الشاعر أنه كان يتحدث إلى امرأة من بني عامر اسمها جُمل فألِفها وَعَشِقَها ثم ارتحل أهلها نحو نَصيبين فتبعتها نفسه فسار إليهم ونزل فيهم مجاوراً وصار يلازم محادثة تلك المرأة، فلما تكرّر منه ذلك نهاه أهلها عنها وقالوا: قد رابنا أمرك فإما أن تنقطع عنها

وإما أن يكون بيننا وبينك حرب، فقال: ما بيني وبينها ما ينكر وإنما كنت أتحدث إليها كما يتحدث الرجل الكريم إلى المرأة الحرة الكريمة، وأما الريبة فحاشى لله منها. ولكنه عاود محادثتها، فانتهبوا ماله وطردوه فأتى محمد بن مروان وكان يومئذ يتولى الجزيرة لأخيه عبد الملك بن مروان واستعداه على بني عامر وعلى الذي أخذ ماله بصورة خاصة، وهو رجلٌ من بني كلاب يقال له ابن الحسام. وأمر محمد بن مروان بابن الحسام فحبسه حتى ردّ مال العجير وأمر العجير بالرجوع إلى قومه وترك النزول على المرأة أو في قومها. ولم يَلُم بنو عامر ابنتهم جملَ على محادثة العجير. وعاد العجير إلى قومه وما زالت نفسه عند تلك المرأة وقال في ذلك شعراً منه:

فليس إلاّ عويل كلمّا ذُكرت
أو زفرة طالما أنّت بها الكبد
وقالوا غداة استقلت ما لمِقلته
أمِن قذًى هملت أم عارها رمد
فقلت لا بل غَدَت جمل لِطِيتّها
فليتهم مثلَ وجدي بكرة وجدوا
فقد أراني ووجدي إذ أفارقها
يوماً كوجدِ عجوز درعها قِدَد
تبكي على بطل حُمّت منيته
وكان واتِرَ أعداءٍ به ابتردوا

وكان يزيد بن الطثرية الشاعر يقال له المُودِق. وكان مولعاً بمحادثة النساء وكانت النساء مفتونة به وبحديثه، لجمال وجهه وحلاوة حديثه وحسن شعره. ويحكى أن جدباً أصاب بني جَرم فجاورت بني قشير لوجود الربيع عندهم. وكان في بني جرم فتى يقال له: مَيّاد، وكان غزِلاً

حسنَ الوجه مليحاً تامّ القامة وكانت النساء مفتونة به، وكان الغزل في جَرْم جائزاً حسناً ومحادثة النساء مقبولة لا بأس بها، أما قُشَير فكان ذلك فيها منكراً مستكرهاً. فلما أخذ مياد الجرمي يزور القشيريات ويتحدث إليهن ولا سيما في غيبة الرجال غضبت لذلك قشير وقالوا إنها بدعة وبعثوا ينذرون جرماً. فضحكت جرم من جفاء القشيريين ومن قلة ثقتهم بنسائهم. واتفق الطرفان على أن يرسل الجرميون رجلاً إلى النساء القشيريات ويرسل القشيريون رجلاً إلى نساء جرم فيتحدث كل منهما إلى النساء في غياب أزواجهن، فبعثوا بمياد الجرمي إلى نساء قشير وبيزيد بن الطثرية إلى نساء جرم، فلما جاء مياد إلى القشيريات طردنه وضربنه وأخرجنه من بيوتهن، ولما جاء يزيد إلى الجرميات أكرمنه وأدخلنه بيوتهن وتحدثن معه. فاسودت وجوه جرم.

ثم انقطع العرب عن محادثة النساء الحرائر وصاروا يحادثون الجواري منذ أواخر العصر الأموي.

* * *

ورأيت في أمالي القالي قوله: وأنشدنا بعض أصحابنا في حسن الحديث:

فبتنا على رغم الحسود وبيننا
حديث كمثل المسك شِيبت به الخمرُ
حديث لو آنّ الميّت نوجي ببعضه
لأصبح حيًّا بعد ما ضمَّه القبر

وأنشد ابن الأعرابي لأعرابي:

وحديثها كالقَطْرِ يسمعه ... راعي سِنينَ تتابَعَت جَدْبا
فأصاخ يرجو أن يكون حَيَاً ... ويقول من فرحٍ هيا رَبّا

الحَيّة

كان للعرب أوابد أو معتقدات شعبية يتحدثون فيها عن عجائب المخلوقات من حيوان ونبات وجماد ومن إنس وجن ومن غيلان وسَعَال. وتحدثوا بصورة خاصة عن الحيات وعما لها من أثر في حياة الإنسان في أمور تصدق أو لا تصدق، وذكروا منها حكاية الشجاع أي الحية الذكر مع عَبيد بن الأبرص وحكاية الحية مع بشر بن عوانة العبدي، وذكروا أيضاً حكاية الحية مع راعي الإبل، وهي الحكاية التي ذكرها النابغة الذبياني في شعره وتعد من أكاذيب العرب، وخلاصتها كما روى أبو عمرو الشيباني وابن الأعرابي أن أخوين كان لهما إبل يرعيانها فأجدبت بلادهما في بعض السنين وكان قريباً منهما واد يقال له عُبيدان وفيه حيّة كانت تحميه فقال أحدهما لأخيه: هل لك في وادي الحية فإنه ذو كلأ ترعاه إبلنا؟ فقال أخوه: إني أخاف الحية فيه وأخافها عليك، ألا ترى أن أحداً لم يهبط ذلك الوادي إلا أهلكته. ولكن الأخ لم يبال بما قيل له عن الحية وقال: والله لأنزلنّ ذلك الوادي. ثم نزله ورعى الإبل فيه. فبينا هو ذات يوم في إبله وقد نام مطمئناً رفعت الحية رأسها فرأته ثم أتته فقتلته ودخلت جُحرها. وبقيت الإبل ترعى إلى ساعة متأخرة من النهار حتى بعد مغيب الشمس وأبطأت في العودة فأدرك الأخ أن أخاه قد هلك وأن الحية قد قتلته. فحزن على أخيه وقال: ما في الحياة بعد

أخي خير، ولأطلبن الحية حتى أقتلها أو تقتلني وألحق بأخي. فجاء إلى الوادي وطلب الحية ليقتلها، ولما رأته قالت له: ألست ترى أني قد قتلت أخاك؟ فهل لك في الصلح وأدعك ترعى في الوادي فتكون فيه وأعطيك ديناراً يوماً، ويوماً لا؟ قال أقبل، وحلف لها على ذلك، وأعطاها المواثيق على أنه لا يضرها ولا يغدر بها انتقاماً لمقتل أخيه. وأخذت الحية تعطيه ما وعدت به وضمنته له، فأيسر وزاد ماله وكثرت إبله وصار من أحسن الناس حالاً. ثم إنه ذكر أخاه يوماً وذكر مقتله وكيف قتلته الحية فدمعت عيناه وقال: كيف ينفعني العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخي؟ فعمد إلى فأسٍ فأحدّها ثم قعد على باب جحر الحية، فمرّت الحية فضربها بالفأس فأخطأها ولم تؤثر الفأس إلا في طرف ذنبها فقطعته. ثم دخلت الحية جحرها وكمنت فيه. ولما رأت ما فعل بها من الغدر قطعت عنه الدينار. وخاف هو على نفسه من شرّها وندم على غدره بها. فأتاها وقال لها: هل لك أن نتوافق ونعود إلى ما كنا عليه؟ فقالت له: وكيف أعاودك وأثر فأسك في ذنبي وأنت ترى قبر أخيك، فأنا لا أنسى ذنبي وأنت لا تنسى أخاك.

ويقال إن عبدالملك بن مروان حج في بعض أعوامه. فأمر للناس بالعطاء، فخرجت بدرة مكتوب عليها «من الصدقة» فأبى أهل المدينة قبولها وقالوا: إنما كان عطاؤنا من الفيء، فقال عبدالملك وهو على المنبر: يا معشر قريش، مثَلنا ومثلكم أن أخوين في الجاهلية، خرجا مسافرين فنزلا في ظل شجرة تحت صفاة، فلما دنا الرَّواح خرجت إليهما من تحت الصفاة حية تحمل ديناراً فألقته إليهما، فقالا: إن هذا لمن كنز، فأقاما عليها ثلاثة أيام، كلَّ يوم تخرج إليهما ديناراً، فقال أحدهما لأخيه: إلى متى ننتظر هذه الحية؟ ألا نقتلها ونحفر هذا الكنز فنأخذه؟ فنهاه أخوه وقال له: إنك ما تدري، لعلك تعطبه ولا تدرك الكنز، وأبى أخوه عليه

وأخذ فأساً ورصد الحية، حتى خرجت فضربها بالفأس ضربة جرحت رأسها ولم تقتلها، فثارت الحية وقتلته ورجعت إلى جحرها فقام أخوه ودفنه؛ وأقام حتى إذا كان من الغد خرجت الحية معصوباً رأسها ليس معها شيء، فقال لها: يا هذه، إني والله ما رضيت ما أصابك، ولقد نهيت أخي عن ذلك، فهل لك أن نجعل الله بيننا فلا تضريني ولا أضرّك وترجعين إلى ما كنت عليه: فقالت الحية، لا. فقال: ولمَ ذلك؟ قالت: إني لأعلم أن نفسك لا تطيب لي أبداً وأنت ترى قبر أخيك، ونفسي لا تطيب لك أبداً وأنا أذكر هذه الشجّة في رأسي. ثم أنشد شعراً للنابغة وفي آخره:

فقالت أرى قبراً تراه مقابلي وضربةَ فأس فوق رأسي فاغره

يا معشر قريش، وَليكم عمر بن الخطاب فكان فظاً غليظاً مضيّقاً عليكم فسمعتم له وأطعتم، ثم وليكم عثمان وكان سهلاً ليناً كريماً فعدوتم عليه فقتلتموه، وبعثنا عليكم مُسلِماً يوم الحرّة فقتلتموه. فنحن نعلم يا معشر قريش أنكم لا تحبوننا أبداً وأنتم تذكرون يوم الحرّة، ونحن لا نحبكم أبداً ونحن نذكر مقتل عثمان. ونزل عن المنبر.

وكان أهل المدينة قد ثاروا على يزيد بن معاوية بعد مقتل الحسين وطردوا عامله على المدينة عثمان بن محمد وطردوا مروان بن الحكم وسائر بني أمية فأرسل اليهم يزيد مسلماً بن عقبة المري على رأس جيش من الشام، فأخاف المدينة ونهبها وقتل أهلها وبايعه أهلها على أنهم عبيد ليزيد. وسمى المدينة نتِنة بدلاً من طيبة. ولما انتهى الجيش من المدينة إلى موضع يقال له الحرة خرج أهل المدينة إلى حربه وجرت موقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من بني هاشم وسائر قريش والأنصار. وهكذا كان العداء المستحكم بين أهل المدينة وبني أمية، فلا بنو أمية

ينسون فعل أهل المدينة بهم لّما أخرجوهم من المدينة ولا أهل المدينة ينسون يوم الحَرّة.

أما الشعر الذي أنشده عبدالملك بن مروان على المنبر فهو للنابغة الذبياني قاله في ما كان بينه وبين يزيد بن سفيان المري، وهو:

ألا أبلغا ذبيانَ عني رسالةً
فقد أصبحت عن منهج القصد جائره
أَجِدَّكم لم تزجروا عن ظُلامة
سفيهاً ولن ترعَوا لذي الود آصره
فلو شهدت سهم وأفناء مالك
فَتُعذِرُني من مُرَّة المتناصِره
فجاءوا بجمع لم يَرَ الناس مِثله
تضاءَل منه بالعشيّ قَصائِره
لِيَهْنِئْ لكم أن قد نفيتم بيوتنا
مُنَدّى عُبَيدانَ المُحلَّئِ باقِرَه
وإني لألقى من ذوي الضغنِ منهمُ
وما أُصبحت تشكو من الوجد ساهِرَه
كما لقِيتْ ذات الصفا من حليفها
وما انفكت الأمثال في الناس سائِره
فقالت له: أدعوك للعَقل وافياً
ولا تَغْشَينّي منك بالظلم بادره
فوثّقها بالله حتى تراضيا
فكانت تَدِيه المال غِبًّا وظاهِرَه
فلما تَوَفّى العقلَ إلّا أقلَّه
وجارت به نفس عن الحق جائره

تـذكـر أَنَّ يجـعـلُ الله جُـنـة

فـيـصـبـحُ ذا مـال ويـقـتـلَ واتـره

أكـبَّ عـلى فـأس يُحِـدّ غُـرابَهـا

مُـذكَّـرةٍ مـن المـعـاول بـاتِـره

فـقـام لهـا مـن فـوق جُـحـر مـشـيَّـد

لـيـقـتـلَـهـا أو تُخـطـئَ الـكـفّ نـادره

فـلـما وقـاهـا الله ضربـةَ فـأسـه

وللبِـرّ عـين لا تـغـمِّض نـاظـره

فـقـال: تـعـالَيْ نـجـعـل اللَّـهَ بيـنـنـا

عـلى مـالِـنـا أو تُنجـزي لِيَ آخِـره

فـقـالـت: يمـينُ اللَّـهِ أفـعـلُ إنـني

رأيـتـك مـسـحـوراً يمـيـنـك فـاجـره

أَبَى لِيَ قـبر لا يـزال مـقـابـلي

وضربـة فـأسٍ فـوق رأسيَ فـاقِـره

* * *

وبنـو أميـة وبنـو هـاشم من دوحـة واحـدة. وكـذلـك أبـو لهب عبـدالعزّى بن عبـدالمطلب فهـو عم النبي ﷺ ومـات ولم يسلم، وكـان أبناؤه يعيَّرون بذلك وينبَـذون من بني هاشـم الآخـرين، وهذا مـا حدا بالفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب أن يقول لأبناء الأعـمام من بني هاشم:

مهـلاً بني عمنـا مهـلاً موالينـا ... لا تنبشـوا بيننا مـا كان مـدفـونـا

لا تـطمعوا أن تهينـونا ونُكـرمَكم ... وأن نكُفّ الأذى عنكم وتؤذونـا

مهـلاً بني عمنـا عن نحت أثلتنـا ... سـيروا رويداً كـما كنتم تسـيرونـا

أللّـهُ يـعلم أنـا لا نـحـبـكـمُ ... ولا نـلـومـكـمُ أن لا تحـبـونـا

كـلٌ لـه نيـة في بغض صـاحبـه ... بنعـمـة اللهِ نـقليـكم وتـقلونـا

والشاهد في الحكاية عن الأخوين أن الأخ قبل الدِّيَة عن أخيه وكان الأجدر به أن لا يقبلها في رأي أصحاب المبادىء وأن يقبلها في رأي أصحاب المنافع. وكان الأجدر به بعد قبول الدية أن يحافظ على العهد في رأي أصحاب المنافع أو أن لا يقبل العهد أصلاً في رأي أصحاب المبادىء، وينتظر الفرصة المناسبة لأخذ ثأره، والعرب منقسمون في هذا الأمر. فمنهم من رفض العقلَ أو الدية ومنهم من قَبِل.

* * *

طوال الرجال

العـرب عادة لا يحبـون القصير ولا القصـيرة، ويحبـون الـطويـل والـطويلة. ولا يحبـون كـلّ قصـير ولا كـلّ قصـيرة إطــلاقاً، ولهم في القصـيرة أوصـاف، ويسمـونها حَبـترة وبُعصـوصـة وجَحـدرة وقُنـزعـة وحَبَرقـصة وقُزمـلة وغير ذلك. أما الطويل فيحبونـه تحت شروط، فلا يرغبون فيه إذا كان طـويلاً ممغـوطاً أو طـويلاً مضـطرب الخلق ويسمون مثل هذا الرجل شِرواطاً وممغوطاً وناغطاً وطُرطوراً وهَندويلاً وغير ذلك. وكان كُثيِّر عزة الشاعر قصيراً ولـه لقب قبيح لقصره، وكـانت صاحبتـه عزة قصيرة، وقال فيها:

وأنت التي حَبَّبـتِ كـلّ قصـيرة ... إليّ ولم تعلم بـذاك الـقصـائـر
عنيتُ قصـيرات الحِجـال ولم أرد ... قِصار الخطى شر النساء البحاتـر

وبالغوا في ذم القصير من الرجـال، حتى إن رجلاً من الكـوفة لما رأى المغيرة بن شعبة وكان أعور قصيراً دميماً قال:

فـأقـسـمُ لـو خـرّت مـن استـك بـيـضـة
لمـا انـكسرت من قـرب بـعضـك مـن بعض

والرجل القميء عنـد العرب هـو القصير الصغـير الجسم، وكان مذموماً. ويقول الأعرابي:

ولما التقى الصفان واختلف القنا نهالاً وأسباب المنايا نهالها
تبيَّن لي أن القماءة ذلة وأن أشداء الرجال طوالها

ووصف عنترة العبسي الطويل فقال:

بطل كأن ثيابه في سَرحة يُحذَى نعال السِبت ليس بتوأم

والتوأم يشارك في الرحم فقد يأتي قصيراً دميماً، وهذا الرجل الطويل ليسْ بتوأم.

وحسان بن ثابت يقول في بني عبد المدان:

وقد كنا نقول إذا رأينا لذي جسم يُعَدّ وذي بيان
كأنك أيها المعطى بياناً وجسماً من بني عبد المدان

فقد مدحهم بالطول.

ومدحت الخنساء أخاها صخراً بالطول فقالت:

طويل النجاد رفيع العماد ساد عشيرته أمردا

وطول النجاد كناية عن طول الجسم لأن طول نجاد السيف دليل على طول الرجل المتقلد السيف. وقال جرير عن البيض الطوال:

تعالَوْا ففاتونا ففي الحكم متسع
إلى الغرّ من أهل البطاح الأكارم
فإني لأرضى عبد شمس وما قضت
وأرضى الطوالَ البيض من آل هاشم

ولعلّ جريراً كان يشير إلى ما اشتهر عن طوال بني عبد المطلب فإن عليّ بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب كان طويلاً ولكنّ أباه أطول منه لأنه إذا قام بجانب ابنه كان يصل إلى منكبه فقط وكان أبوه عبد الله هذا يصل إلى منكب العباس، وكان العباس يصل إلى منكب عبد المطلب، فكان عبد المطلب أطول الجميع، وكان علي بن

عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وهو أقل طولاً يطوف بالكعبة كأنه راكب والناس مشاة لطوله. ورأته مرة عجوز وهو يطوف فقالت من هذا؟ فقيل لها: علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب فقالت: لا إله إلا الله، إن الناس أراهم يَرْذُلون، عهدي بجده العباس يطوف بهذا البيت كأنه فسطاط أبيض. فالعجوز كأنها تقول: ما لعلي بن عبد الله بن العباس قصيراً وكنت أعرف جده العباس كأنه فسطاط أبيض لعظم جسمه وطوله الفارع. وقولها عن العباس: كأنه فسطاط أبيض يشبه قول عنترة: بطل كأن ثيابه في سَرحة، والسرحة هي الشجرة العظيمة العالية، وهذا دليل على طول قامته وعظم جثته.

ومن ذلك قول مروان بن أبي حفصة يمدح المهدي:

قصُرتْ حمائله عليه فقلّصت ... ولقد تأنق قينُها فأطالها

وبالغ أبو نواس في مدح الطول فقال:

سَبْط البنان إذا احتبى بنجاده ... غَمَر الجماجمَ والسماطُ قيام

أي إن هذا الممدوح إذا قعد واحتبى بحمائل سيفه وهو قاعد كان من الطول بحيث ينيف على رؤوس القوم وهم قائمون صفين حوله.

والمشهورون بالطول غير علي وعبد الله والعباس وعبد المطلب الذين ذكرناهم منهم جرير بن عبد الله البَجَلي والأشعث بن قيس وعدي بن حاتم الطائي وابن جذل الطعان وأبو زُبيد الطائي وزيد الخيل بن مهلهل الطائي. وعرف عن هؤلاء أن الرجل منهم كان يقبل الظعينة وهي في هودجها على الجمل وهو على قدميه، وكان يقال للواحد من هؤلاء مقبّل الظُّعُن.

وكان في زمان معاوية بن أبي سفيان رجل في غاية الطول اسمه قيس بن سعد، كان الناس يتعجبون من عظم سراويله. ويقال إن

ملك الروم طلب من معاوية أن يرسل إليه أطول رجل عنده فأرسل إليه قيس بن سعد، وطلب معاوية من قيس أن يترك له سراويله فخلعها قيس أمام معاوية ورمى بها إليه. وكان قيس هذا إذا مشى ظن الناس أنه راكب.

وقالوا عن جَبَلة بن الأيهم أنه كان طويلاً بطول اثني عشر شبراً. وإذا عدنا إلى ذكر طول النجاد فنذكر من ذلك قول أبي نواس في مدح الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك، فقد قال يمدحه:

وكنا إذا ما الحائنُ الجَدّ غَرّه
سنا برقِ غاوٍ أو ضجيجُ رِعاد

تَرَدّى له الفضل بن يحيى بنِ خالد
بماضي الظُّبى أزهاه طول نجاد

والمدح بطول النجاد قديم، ومن ذلك قول الأعشى:

إلى ماجد كهلال السماء أزكى وفاءً ومجداً وخيرا
طويل النجادِ رفيعِ العِماد يحمي المُضافَ ويغني الفقيرا

ومثله:

طويلُ نجاد السيف عارٍ جبينه — كنصل اليماني أخلصته صَياقِله
إذا همّ بالمعروف لم تجْر طيرُه — نُحوساً ولم تسبِق نداه عواذله

ويقول طُريح بن إسماعيل الثقفي:

وأشعثَ طلّاع الثنايا مباركٍ — يَغُول نِجادَ السيف وهو طويل

ويقول أبو عطاء السندي:

وأزهرَ من بني عمرو بن عمرو — حمائلُه وإن طالت قِصار

وقال رجل من بني العنبر عن الطول بعبارةٍ أخرى:

فجاءت به عبلَ العظام كأنما عِماِمتُهُ بين الرجال لواء

ويقول سلمُ الخاسر:

يقوم مع الرمح الردينيّ قائماً ويقصر عنه طول كلّ نجاد

ويقول الوالبي:

طَوْل وطُول فترى كفَّه ينهلّ بالطَّوْل انهلال الغمام
وطُولُه يغتال يوم الوغى وغيره فضلَ نِجاد الحسام

وهذا كله في مدح الطول. وكان الرجال يعتزون بطولهم ويخجلون من قصرهم، ومن هؤلاء أبو العيناء محمد بن القاسم، وقد قال:

ألم تعلمي يا عمرَكِ اللَّهَ أنني
كريم على حين الكرامُ قليلُ
وأنيَ لا أخزى إذا قيلَ مقترٌ
جواد وأُخزى أن يقال بخيل
وإلّا يكن عظمي طويلاً فإنني
له بِالخصال الصالحاتِ وصول
إذا كنتُ في القوم الطوال فضلتهم
بطَوْلي لهم حتى يقال طويل
ولا خيرَ في حسن الجسوم وطولها
إذا لم يَزِن طولَ الجسوم عقول
وكائن رأينا من جسومٍ طويلة
تموت إذا لم تُحيِهِنّ أصول
ولم أرَ كالمعروف أمّا مذاقه
فحُلوٌ وأما وجهه فجميل

ومع أنّ المعروف أن أشداء الرجال طوالها. فإن العباس بن مرداس يرى غيرَ ذلكَ، فهو يقول:

ضِعاف الطير أطولها جسوماً ولم تطل البزاة ولا الصقور
لقد عظم البعيرُ بغير لب فلم يستغنِ بالعِظَم البعير

كما قال حسان:

لا بأس بالناس من طول ومن قصر
جسم البغال وأحلام العصافير

وهذه أقوال في الاعتذار عن عدم الطول، فلا يعتد بها ولكنهم كما قلنا كانوا يأنفون من قِصر القامة. فقد رأيت أن أعرابياً حضر مجلساً للغناء كانت تغني فيه قينة قصيرة القامة فأومأت إليه بأنه قصير فقال لها:

يا جَعْفرٌ يا جعفرٌ يا جعفر
إن أكُ رَبْعَةً فأنتِ أقصر
أو أكُ ذا شيب فأنتِ أكبر
غَرّكِ سربال عليك أحمر
ومِقنعٌ من الحرير أصفر
وتحت ذاك سَوأة لو تُذكر

ومن الذين اعتذروا عن القِصر الفاحش نضْلة السلمي في يوم غول فقال:

ألم تَسَل الفوارسَ يومَ غَول بنضلةَ وهو موتور مُشيح
رَأوه فازدرَوْه وهو حُرّ وينفع أهله الرجلُ القَبيح
فشدّ عليهمُ بالسيفِ صَلْتاً كما عضّ الشبا الفرس الجَموح
ولم يخشوا مُصالتةً عليهم وتحت الرغوة اللبنُ الصريح

ورأيت أن رجلاً من بني الأضبط بن كلاب كان قصيراً، وعُيِّر بذلك فقال:

كـذاك ابنـةَ الأعيـان خـافي بسـالـة الـرجـال
وأصـلال الـرجـال أقـاصرُه

فـلا تـذهـبـنْ عـيـنـاكِ في كـل شرمـح
طـويـلٍ فـإن الأقصريـن أمـازِرُه

وأصلال الرجال دهاتها، جمع صِـلّ. والرجـل المزيـر هو العـاقل والجمع أمازر. فهو يقول إن قصار الرجال هم العقلاء والدهاة.

وقال مُضرِّس بن ربعي الفقعسي وكان قصيراً:

وغـانيـة عـرضتُ لهـا فقـالت رأيتُ مُضَرِّسـاً جعـداً قصيـرا
إذا لاقيتِ قـومـي فـاسـأليهـم كفى قـومـاً بصـاحبهم خبيـرا

فهـذا يعتذر عن قصره بـأنه شجـاع جواد، وأفعـاله الحسنـة عند قومه خير شاهد له.

وقال المُسَيَّب القُريطي وكان قصيراً:

زعمـوا أنني قـصـير لعـمـري مـا تكـال الـرجـال بـالقُفْزان
إنما المرء باللسان وبالقلب وهذا قلبي وهذا لساني

وقـوله: مـا تكال الـرجال بـالقُفزان، أصله من قـول ضَمـرة بن ضمـرة للمنـذر بن مـاء السماء لمّا ازدراه المنـذر لقصره وقـال: تسمع بالمُعَيْدي خير من أن تراه، فرد عليه ضمرة قائلاً: أبيت اللعن، ما تكال الرجال بالقفزان. إنما المرءُ بأصغريه قلبه ولسانه.

واعتذر كثير عزة عن قصره فقال:

فـإن أكُ مـعـروق الـعـظام فـإنـي
إذا مـا وزنـتُ الـقـومَ بـالـقـوم وازنُ

الثّلاث

اعتاد العرب أن يتكلموا عن الشيء وضدّه، وأكبر همّهم في المثنيات حتى إن بعضهم ألّف كتاباً في المثنيات، ولم يعرف عن العرب اهتمامهم بالمثلثات وإنما كانت المثلثات تعرض لهم عرضاً أو إنهم كانوا يتكلفون الكلام عنها بقصد المبالغة لأن الثلاثة أكثر من الاثنين. ولعلّ الشاعر طرفة بن العبد هو الذي فتح الباب حين قال:

ولولا ثلاث هنّ من عيشة الفتى
وحَقِّك لم أحفل متى قام عُوّدي

فمِنهن سبقي العاذلاتِ بشربة
كُميت متى ما تُعْلَ بالماء تُزْبد

وكرّي إذا نادى المضاف محنَّباً
كَسيدِ الغضا نبَّهتَه المتورّد

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب
ببهكَنة تحت الخباء الممدَّد

وقيل إن طرفة بن العبد سُئِل: ما أطيبَ لذاتِ الدنيا؟ فذكر ثلاثة وهي. مركب وَطيّ وثوب بهي ومطعم شهي. ولم يعتن الشعراء العرب بذكر الثلاثة إلاّ بعد العصر الأموي. ويذكر بهذه المناسبة أن هارون الرشيد كان عنده ثلاث جوار أسماؤهن سِحْر وضياء وخَنَث،

وكان يقال لخنث ذاتُ الخال. وقال الرشيد أشعاراً فيهن، منها قوله:

إن سِـحْـراً وضيـاءً وخَـنَـث ... هـن سِـحـر وضيـاء وخنـثْ
أخـذت سِـحْـرٌ ولا ذنـبَ لهـا ... ثـلثي قـلبي وتِـربـاهـا الـثلث

والمشهور قول الرشيد فيهن أو هـو قول العبـاس بن الأحنف على لسان الرشيد:

مَلَك الثـلاث الآنسات عِنـاني ... وحللن من قلبي بـكـلِّ مكـان
مـالي تـطاوعني الـبريـة كُلُّهـا ... وأُطِيعـهنّ وهـن في عـصيـاني
مـا ذاك إلّا أن سـلطان الهـوى ... وبـه قـوِيـنَ أعـزّ من سـلطاني

وللرشيد أيضاً في جواريه الثلاث، وكان الناس يتناشدونه:

ثـلاثٌ قـد حـللنَ حِمَى فـؤادي ... ويُعـطين الـرغـائب في ودادي
نـظمـنَ قلوبهـنّ بسـلك قـلبي ... فـهن قـرابـتي حـتى الـتنـادي
فمن يـك حَـلّ من قلب محـلاً ... فـهن مـن النـواظـر والـسـواد

وكان سليمان المستعين أحد ملوك الدولة الأمـوية في الأنـدلس قد عارض قول هارون الرشيد في الثلاث الجواري بقولـه فـي ثـلاثٍ عنده حيث قال:

عجبـاً يهـاب الليث حَـدَّ سِنـاني ... وأهـاب سحـر فـواتـر الأجفـان
وأقـارع الأهـوال لا متهيِّبـاً ... منهـا سوى الإعـراض والهجـران
وتملكت نفسي ثـلاث كـالـدمى ... زُهـرُ النجوم نـواعم الأبـدان
ككـواكب الظلماء لُحْنَ لنـاظـري ... من فـوق أغصـانٍ عـلى كُثبـان
حـاكمتُ فيهن السلوَّ إلى الرِّضى ... فـقضى بـسـلطان عـلى سـلطاني
هذي الهلال وتلك بنت المشـتري ... حُسْناً، وهذي أخت غصن البان
فـأبَحْن من قلبي الحِمَى وتركنَني ... في عِـزّ مُلكي كـالأسـير العـاني
لا تعـذِلوا ملِكـاً تذلـل في الهوى ... ذلّ الهـوى عـزّ ومـلك ثـاني

مــا ضرّ أني عبــدهنّ صَبابــةً وبنـو الـزمــان وهن من عُبداني

إن لم أُطـع فِـيـهـن سـلطان الهـوى

كَـلَفــاً بهــنّ فــلســتُ مــن مــروان

ويظهر أنّ ثلاثة طرفة في معاقرة الخمر ومصاحبة الفتاة الناعمة، مع إغاثة المستغيث وجدت من يعيبها، فقد قال الصاحب عز الدين أبو حامد المعتزلي:

لــولا ثــلاث لم أَخَف صَـرْعَتي لـيست كـما قــال فتى الـعبـد
أن أَنْصُرَ التـوحيـدَ والعــدلَ في كــلّ مــكــانٍ بــاذلاً جـهـدي
وأن أُنــاجي الله مـسـتـمـتـعــاً بـخـلوة أحـلى مــن الـشَّـهـد
وأن أَتيــهَ الـدهــرَ كِبـراً عــلى كــلّ لئـيـم أصـعـر الخـدّ
لــذاك أهــوى لا فــتــاةً ولا خمـراً ولا ذي مَـيـعـةٍ نَهْد

وقال الإمام ضياء الدين القيسي الظاهري:

لــولا ثــلاث هُــنّ والله مِني أكــبرُ أمــاليَّ في الــدنــيــا
حَــجٌّ لــبيــتِ الله أرجــو بــه أن يـقـبــل الـتــوبــةَ والسَّعْيا
والـعـلمُ تـحـصيـلاً ونــشــراً إذا رَويــتُ أوسـعـتُ الـورى رَيّـا
وأهــلُ ودّ أســأل الله أن يُمَتّــع بــالبُـقيــا إلى اللُّقيــا
مــا كـنتُ أخشى المــوتَ أنّى أتى بــل لم أكــن ألـتــذّ بــالَمحْيــا

وقال الشيخ أَثير الدين أبو حيّان:

أمــا إنــه لــولا ثــلاث أحِــبّــهــا

تمــنـيــت أني لا أُعــدّ مــن الأحــيــا

فــمـنـهــا رجــائـي أن أفــوز بـتـوبـةٍ

تُــكـفّــر لي ذنـبــاً وتُـنـجِـحُ لي ســعــيــا

ومـنهـنّ صــونُ الـنفس عــن كــل جــاهــل

لئـيــم فــلا أمشي إلى بــابــه مــشــيــا

ومنهن أخذي للحديث إذ الورى
نَسُوا سُنَّةَ المختار واتبعوا الرأيا
أَتْرُكُ نصًّا للرسول ونقتدي
بشخص لقد بُدِّلْتُ بالرشد الغِيا

وقال الصفدي:

لولا ثلاث هن أقصى المنى لم أَهَبِ الموتَ الذي يُردي
تكميلُ ذاتي بالعلوم التي تنفعني إن صرتُ في لحدي
والسعيُ في ردّ الحقوق التي لصاحبٍ نِلت به قصدي
وأن أرى الأعداءَ في صرعة لَقِيتها من جمعهم وحدي
فبعدها اليومُ الذي حُمَّ لي
عندي استوى في القربِ والبُعْدِ

وهذه الثلاثات ليس فيها شيء طريف. والطريف قول كثيرّ عزة في الحالات الثلاث:

وَدِدتُ وحقّ اللهِ أنَّكِ بَكْرة وأني هِجان مصعَب ثم نهرب
كلانا به عُرّ فمن يَرَنا يَقُل على حسنها جرباءُ تُعدي وأجرب
نكون لذي مالٍ كثير مُغَفّل فلا هو يرعانا ولا نحنُ نُطلب

فكثيرّ يتمنى ثلاثة أشياء: أن يكون جملاً وأن يكون الجمل أجرب وأن يكون الجمل لرجل كثير المال يترك جملَه هَمَلاً، ويتمنى لعزة مثلَ ذلك: أن تكونَ بكرة وأن تكون البكرة لرجل كثير المال مُغفّل وأن تكون جرباء.

وجاء محمد بن وهيب في مدحه للمعتصم بطرافة أخرى حيث قال:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها
شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر
فالشمس تحكيه في الإشراق طالعةً
إذا تقطع عن إدراكها النظر

والبـدر يحكـيـه في الظلماء منبلجـاً
إذا استنـارت ليـاليـه بـه الغُـرَر

ثم أتى بثلاثة أخرى وقال:

يحكي أفـاعيلَه في كـلّ نـائبـةٍ — الغيثُ والليثُ والصمصامةُ الذكر
فالغيث يحكي ندى كفيه منهمراً — إذا استهل بصوت الديمة المطرُ
وربما صال أحيانـاً عـلى حنق — شبيه صولته الضرغامة الهَصِر
والهنـدوانيُ يحكي من عزائمـه — صريمةَ الرأي منه النقضُ والمِرَر

ومثل هذه الثلاثة ثلاثة لابن هانىء الأندلسي في مدحٍ لجعفر بن علي:

المُدْنَفات من البرية كلها — جسمي وطرف بابلي أحـور
والمشرقـات النيرات ثـلاثة — الشمس والقمر المنير وجعفر

والشعراء يستعملون الصور للوصول إلى المدح كما استعملها محمد بن وهيب وابن هانىء. وانظر إلى استعمال جمال الدين بن مطروح لها للتوصل إلى مدح الناصر داود:

ثـلاثـة ليس لـهم رابـع — عـليهمُ معتمـد الجـود
الغيثُ والبحـرُ وعزُّ زهـا — بـالملكِ النـاصر داود

ويقول الصلاح الصفدي:

ثـلاثـة كلفـوا بحب ثـلاثـة — فـأعجب لأيهم أشـدَّ وأكلفـا
كلفي بحبكَ إذ كلفت بجفـوتي — ويعـذلنا كلف العـذول وأسرفا
لا عـاذلي يـدع المـلامَ ولا أنـا — أدع الغـرامَ وأنت لا تـدع الجفا

وهذا شبيه بقول المعتمد بن عباد:

ثـلاثـة منعتنـا مـن زيـارتها — خوف الرقيب وخوف الحاسد الحَنِق
ضوء الجبين ووسواس الحُليّ ومـا — تحـوي معـاطفهـا من عنبر عَبِق

هب الجبينَ بفضل الكُم تستره والحلي تنزعه ما حيلة العَرَق

واستعمل الشعراء الثلاثة أو الثلاث في صور مختلفة، منها مثلاً قول ابن لَنكك:

أَعَدّ الورى للبرد جنداً من الصَّلا
ولاقيته من بينهم بجنود
ثلاثة نيران فنار مدامة
ونار صبابات ونار وقود

وللصنوبري ما هو على هذا المنوال حيث يقول:

نارُ راحٍ ونار خدّ ونارٌ
لِحشا الصب بينهنَّ استعارُ
ما أُبالي ما كان ذا الصيفُ عندي
كيف كان الشتاء والأمطارِ

وذكر ابن سكرة الثلاثة بصورة أخرى حيث قال:

أهلاً وسهلاً بمن زارت بلا عِدةٍ
تحت الظلام ولم تحذر من العَسَس
تسترت بالدجى عمداً فما استترتْ
وناب إشراقها ليلاً عن القبس
ولو طواها الدجى عني لأَظهرها
برد اللثات وعطر النحر والنفَس

وألمّ بالمعنى السري الموصلي حين قال:

حُليُّهُ وثناياه وعنبره
كلٌّ ينِم عليه أو يراقبُهُ
فلست أدري إذا ما سار في أفق
شمائل الأفق أذكى أم جنائبُهُ

وفي مثل قول ابن مطروح قول محمد بن شمس الخلافة:

شيئان حدّثْ بالقساوة عنهما ... قلب الذي يهواه قلبي والحَجَرْ
وثلاثة بالجود حدث عنهما ... البحر والملك المعظم والبَحَر

وفي مثل قول المعتمد بن عباد قول ناصر الدين محمد بن النَّشائي:

ورُبَّ مَن ساءني التشبيه قلت له
إن كان لا بُدّ فهي البانة النَّضِره
ثلاثة هدَت الواشي لمنظرها
حسنٌ وحَليٌ وشَى والنكهة العَطِره

ومن الذين خالفوا طرفة بن العبد في ثلاثته الشيخ عمر القاري الدمشقي في قوله:

لولا ثلاث خصال هنَّ منْ أملي
ما كنت أوثِر أن يمتدّ بي أجلي
كسب العلومِ التي من نور بهجتها
يبين لي مسلكي في القول والعمل
وجَبْرُ خاطر مَن قد ذل جانبه
ولم يَجد مسعِفاً في الحادث الجلل
كذاك لله تسليمي ومرتجعي
فهذه جلّ ما أرجوه من أملي
فيا إله الورى سَهِّلْ مطالبها
فأنت غوث لمن يرجو النجاةَ ولي

وله أيضاً:

ولولا ثلاث هنّ أقصى المراد ... ما اخترت أن أبقى بدار النَّفادْ

تهـذيبُ نفسي بـالـعلوم الـتي بهـا لـقـد نلت جميـعَ المـراد
وطـاعـةُ أرجـو بـإخـلاصهـا نـوراً بهـا تُشرِق أرضُ الـفـؤاد
كـذاك عـرفـان الإلـه الـذي لأجـله كـان وجـود الـعـبـاد
فـأسألُ الـرحمنَ بـالمصـطفى وآلِـهِ الـتـوفيـقَ فـهـو الجـواد

ونسج عبد الله بن نَهيك على منوال طرفة وقال مخالفاً له:

ولـولا ثـلاث هُـنّ مـن عـيـشـة الـفـتى
وجَـدّك لم أحـفـل مـتى قـام رامـسُ
فـمـنهـن سـبـقـي الـعـاذلات بشربـة
كـأن أخـاهـا مـطلع الـشـمس نـاعسُ
ومـنهـن تجـريـد الـكـواعـب كـالـدُّمَـى
إذا ابـتز عـن أكـفـالهـن المـلابس
ومـنهـن تـقـنـريط الجـواد عِـنـانـه
إذا استـبـق الـشـخصَ الخفِـيَّ الـفـوارس

وقال آبان اللاحقي في ثلاثة أخرى:

رأيتُ العيش يجمعـه ثـلاث إذا تمّـت كـفتـك مـن السرور
طبيـخ الشمس لم تسفعـه نـار ولم يَـعْـبَـق بـه وضر الـقـدور
وجـاريتـان تـوقـع ذي بـطبـل وتحسِن تِيـك في مثـنى وزيـر
وأشكـال من الفتيـان صيغت خـلائقهـم عـلى كـرم وخِـير

الخلفاء والشعر

الشعر ديوان العرب. ومَن قال الشعر كان لـه مقام مـرموق بـين قـومه. ومـع أن النبي ﷺ نهى عن قول الشعـر والاستماع إليـه في غـير طـاعـة الله وعلى هـذا الشـرط فـلا حـرج من روايتـه أو الاستشهـاد بـه أو الاستماع إليه. وقد رَوُوْا عنه:

هـل أنـتِ إلاّ اصبـعٌ دميـتِ ، وفي سبيـل الله مـا لـقيـتِ

وقالوا إنه لم يقصد بها شعراً.

وكان عليه الصلاة والسلام يسمع الشعر العفّ الجيِّد، وكان له ثلاثة شعراء: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رَواحة، وكعب بن مالك.

ورأيت في كتاب الكشكول للعاملي أن بعض الأعراب أنشد النبي ﷺ:

أقـبـلت فـلاحِ لهـا ... عـارضـان كـالسبج

أدبـرت فـقـلتُ لهـا ... والـفـؤاد في وهـج

هـل عـليّ ويحـكـما ... إن عَشِقت من حـرج

★★★

وروى الحجاج بن رؤبة الراجز قال: أنشدت أبا هريرة هذين البيتين:

طـاف الخيـالان فهـاجـا سقـما ... خيـالُ سلمـى وخيـال تـكتُـما

قـامت تـريـك رهبـةً أن تَصْرِمـا ... سـاقـاً بَخَنْـداة وكعبـاً أدرمـا

★★★

ونسبوا أشعاراً إلى الخلفاء الراشدين، فقالوا إن أبا بكر رضي الله عنه قال لمّا أصابته الحمى في المدينة:

كلّ امرىء مصبِّح في أهله   والموت أدنى من شراك نعله

ويقال إن هذا البيت ليس من قوله وإنما من قول الحكم بن نهشل، وتمثل به أبو بكر. ونسبوا هذين البيتين إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

هوّن عليكَ فإن الأمور   بكف الإله مقاديرها
فليَس يأتيك منهيّها   ولا قاصرٌ عنك مأمورها

والبيتان للأعور الشَّني، وكان عمر رضي الله عنه يتمثل بهما، وهذا دليل على معرفته بالشعر، ومعروف عنه أنه كان أعلم الخلفاء الراشدين بالشعر. ويروى عنه رضي الله عنه أنه قال يوماً: كذب الحطيئة في قوله:

وإنّ جياد الخيل لا تستفِزّنا   ولا جاعلات العاج فوق المعاصم

وهذا دليل أيضاً على معرفته بالشعر.

وأجاز النبي ﷺ لكعب بن زهير أن ينشده في المسجد على مشهد من الصحابة قصيدته المشهورة:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ   متيّم إثرها لم يُفد مكبولُ

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري يقول له: مُرْ مَن قِبَلَك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومَعرفة الأنساب.

ويروى لعثمان بن عفان رضي الله عنه قوله:

خليليّ لا والله ما من ملمة
تدوم على حيّ وإن هي جلّتِ
وإن نزلت يوماً فلا تخضعن لها
ولا تكثِر الشكوى إذا النعل زلت
فكم من كريم قد بلي بنوائب
فصابرها حتى مضت واضمحلت
فكانت على الأيام نفسي عزيزةُ
فلما رأت صبري على الذل ذلت

ويروى عنه أنه قال:

غنى النفس يكفي النفس حتى يكفّها
وإن أعسرت حتى يضُرّ بها الفقر
فما عسرة - فاصبر لها إن لقيتها -
بدائمة حتى يجيء لها يسر

ويروي أن امرأة حكيمة من العرب يقال لها الأوسية سئلت بحضرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أيّ منظر أحسن؟ فقالت: قصور بيض في حدائق خضر، فأنشد عمر رضي الله عنه لعدي بن زيد:

كدُمَى العاج في المحاريب أو كالبيضِ في الروض زهره مستنير

أمّا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فهو في منزلة خاصة من

معرفته للشعر ومن قوله له، ولو أن كثيرين من أهل النظر ينكـرون على الخلفاء الراشدين أن يكونوا قد قالوا شعراً حتى إن صاحب كتاب تاريخ النحاة قال: ما صحّ عندنا وما بلغنا أن علي بن أبي طالب قال شعراً إلّا هذين البيتين:

تـلـكـم قـريش تمـنـتـني لـتـقـتـلني
فـلا وربـك مـا بَـرّوا ومـا ظَـفِـروا
فـإن هـلكـتُ فـرهـن ذمـتي لهـم
بـذات رَوقـين لا يَـعْـفـو لهـا أثـر

وفي السيوطي أيضاً له:

لا يـدخـل الـنـار عـبـد مـؤمـن أبـداً
ولا يـقـول ذوو الألـبـاب لا قَـدر
ولا أقـول لـقـوم إن رازقـهـم
غـيرُ الإلـه وإن بـرُّوا وإن فـخـروا
الله يـرزق مـن يـدعـو لـه ولـداً
والمشركـين ويـومَ الـبـعـث يـنـتصِر

ولكن لعلي رضي الله عنه ديوان شعر وله أشعار تروى عنه.

ثم إن أكثر الخلفاء كانوا يقولون الشعـر بعد الخلفـاء الراشـدين، ومنهم معاوية وابنـه يزيـد وكان عبـد الملك بـن مروان من أعلم النـاس بالشعر والأدب، وكان الوليد بن يزيـد شاعـراً، ومن الخلفاء العبـاسيين شعراء وأدباء، وكذلك من أمـراء الأندلس وخلفـاء الأمويـين في الغرب والأمراء في المغرب وتونس وغيرهما.

وأبـو بكر رضي الله عنـه، واسمُه عبـد الله بن عثمان، مـذكور في هذا الميدان، وورد عنه أنه ورد عليه مالٌ من البحرين فوزعه على الناس

بالتساوي ولم يفرق بين مهاجر وأنصاري أو غيرهما، فغضب الأنصار، ولمّا علم بذلك صعد المنبر وقال: يا معشر الأنصار إن شئتم أن تقولوا: إنا آويناكم في ظلالنا وشاطرناكم في أموالنا ونصرناكم بأنفسنا لقلتم، وإن لكم من الفضل ما لا يحصيه العدد وإن طال به الأمد، فنحن وأنتم كما قال طُفيل الغنوي:

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت
بنا نعلنا في الواطئين فزلّتِ

أبوا أن يملّونا ولو أن أمّنا
تلاقي الذي يلقَوْن منا لملّت

همُ أسكنونا في ظلال بيوتهم
ظِلال بيوتٍ أدفأت وأظلّت

وأورد له صاحب العمدة قصيدة في خمسة عشر بيتاً يقول فيها:

أمِن طيف سلمى بالبطاحِ الدمائث
أرقت أو آمرٍ في العشيرة حادث

تَرَى مِن لؤيّ فرقةً لَا يصدّها
عن الكفر تذكير ولا بعث باعث

رسول أتاهم صادق فتكذّبوا
عليه وقالوا لست فينا بماكث

فإن يرجعوا عن كفرهم وعقوقهم
فما طيّبات الحِلّ مثل الخبائث

وذكر صاحب كتاب زهر الآداب أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال يوم فتح مكة:

ألم تر أن الله أظهر دينه
على كل دين قبل ذلك حائد

وأمـكـنـه مـن أهـل مـكـة بـعـدمـا
تـداعـوا إلى أمـرٍ مـن الـغـي فـاسـد
غـداةَ أجـال الخـيـلَ في عـرصـاتهـا
مـسـوّمـةً بـين الـزبـير وخـالـد
فـأمسى رسـول الله قـد عـزّ نصره
وأمسى عـداه مـن قـتـيـل وشـارد

ولا نـريد التعـرض لشعر عـلي رضي الله عنه أو لشعـر أحـد من أبنائه ولا لشعر معاويـة أو يزيـد أو عمرو بن العـاص أو غيرهم، وإنمـا نريد الكلام على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فقد كان رغم زهده يستـطيب الشعر ويستعـذب الغناء بـه. ويقال إن رجـلاًمن العـراق أتى المدينة في حاجة له وهي أنه كـان في طلب جاريـة في المدينـة وصفت له بأنها قارئة قوالـة، وسأل عنهـا فوجـدها عنـد قاضي المـدينة، فجـاء إلى القاضي وسأله أن يعرضها عليه. فقال القاضي: يا عبد الله لقد أبعدت الشقة في طلب هذه الجارية، فما رغبتك منهـا؟ فقال الـرجل: إنها تغني بالشعر فتجيد. فقال القاضي ما علمت بهـذا عنها. ولكنّ الـرجل ألـح عـلى القاضي بـأن يعرضـهـا عليه، فعُـرضت فقال لهـا الـرجـل: غني! فقالت:

إلى خـالـد، حتى أنخنـا بخـالـد فنعم الفتى يُـرجى ونعم المؤمّـل

فـأتمت الأبيات والغنـاء، ففـرح القـاضي بجـاريتـه وغشـيه من الطرب أمر عظيم وقال لها: هات شيئاً، بأبي أنت، فغنت بشعر آخر:

أروح إلى القصـاص كـل عشيـة أرجّي ثـواب الله في عـدد الخـطا

فزاد الطرب على القاضي، ولم يدر ما يصنع، من شدة طربه وإعجابه بغناء جاريته وشعرها، ثم قال للرجل: يا حبيبي انصرف، قد

كنا في هذه الجارية راغبين قبل أن نعلم أنها تقول، وبعد أن علمنا بذلك صرنا فيها أرغب. فانصرف الرجل خائباً.

وبلغت الحكاية عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقال عن القاضي: قاتله الله، لقد استرقه الطرب وأمر بعزله. ولما عزله قال: نساؤه طوالق، لو أن عمر سمعها وهي تغني لطرب وفعل ما فعلت.
وبلغ هذا القول عمر، فأمر بإشخاص القاضي وإشخاص الجارية. فلما دخلا على عمر، قال للقاضي: أعد ما قلت! فقال: نعم، وأعاد ما قال. فالتفت عمر إلى الجارية وقال لها: قولي! فغنت:

كأن لم يكن بين الحَجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا
صروف الليالي والجدود العواثر

فلمّا أتمت الشعر والغناء طرب عمر طرباً بيّناً واستعادها ثلاث مرات وقد ابتلّت لحيته بالبكاء، ثم التفت إلى القاضي وقال له: لقد قاربت في يمينك، عُد إلى عملك راشداً.

فأي دليل على محبة الخلفاء للشعر والغناء أقوى من هذا الدليل؟
ونسبوا إلى عمر بن عبد العزيز قوله:

أنظر لنفسك يا مسكين في مهل
ما دام ينفعك التفكير والنظر
قِف بالمقابر وانظر إن وقفت بها
لِلَّه درك ماذا تستر الحفر
ففيهمُ لكَ يا مغرور موعظة
وفيهمُ لك يا مغتر معتبر

الغنـاء

الغنـاء فن من فنون التـرف تُعنى به كـل أمة وتستعمله في أمـور شتى مثل الفرح والحزن والتسلية والرقص والأنس وغير ذلـك، ويشترك فيه الرجال والنساء على السواء. وكـان للعرب غنـاء في الجاهليـة وكان لهم قِيان مغنيات وكان لهم آلات طرب بسيطة كالرباب والدف والزمر. وفي الإسـلام ترقى الحـال بهم وتعلموا ضروبـاً من الغناء والـطرب من الفـرس والـروم وغـيرهم، وتعـدد الغنـاء عنـدهم وظهـر بينهم مغنـون احترفوا الغناء، وكانت مـراكز الغنـاء في أول الإسلام في مكـة والمدينـة والكوفة ثم في الـطائف والبصرة على نـطاق أضيق. ولسائـل أن يسأل: كيف جرى أن مكة والمدينة وهما المدينتان المقدّستان أصبحتا مقـرّ الغناء ومأوى المغنين؟

مكة والمدينة كانتا من حيث الولاء السياسي من حزب بني هـاشم ضد حزب بني أمية، وكانتا مع الحسين رضي الله عنه على معاويـة وآل أبي سفيان. ولما قتل الحسين اهتاجت نفوس أهل مكة والمدينة وأظهـروا عداءَهم ليزيـد بن معاويـة وللدولة الأمـوية عـامة، وأعلنـوا العصيان، فأرسل إليهم يزيد بجيش من الشام بقيادة مسلم بن عقبـة المري فـأناخ الجيش على المدينة وخرج إليـه أهلها يقـاتلون وحصلت موقعـة عظيمـة يقال لها يوم الحرة كانت الدائرة على أهـل المدينـة فقتل منهم خلق كثـير

واستبيحت الدور والمنازل وأرغم الناس على البيعة ليزيد على أنهم عبيده. ثم سار الجيش إلى مكة فحاصرها ونصبت المنجنيقات والعرادات عليها وعلى المسجد الحرام على الجبال، وعبدالله بن الزبير في المسجد ومعه المختار بن أبي عبيد الثقفي، فتواردت أحجار المنجنيقات والعرادات على البيت الحرام، ورمي البيت مع الأحجار بالنار والنفط ومشاقات الكتان، وانهدمت الكعبة واحترقت. ثم رفع الحصار عند وفاة يزيد بن معاوية. ولما ملك عبد الملك بن مروان أعاد الحصار على مكة وعلى ابن الزبير حتى أخضعها.

وظهر في المدينة ثم في مكة بعد الحوادث في أيام يزيد طائفة من الناس أحبت القعود عن الحزبين السياسيين: حزب بني هاشم من العلويين والشيعة وحزب بني أمية، وفضلت الحياد، ورأت أن أحسن ما تلجأ إليه لإظهار الحياد علناً هو الانهماك في ملذات النفس من أكل وشرب وغناء، والانخراط في مجالس الأنس ومعاشرة المغنين والمغنيات، فانتشر الغناء في المدينة ومكة واشتغل فيه العديد من الرجال والنساء في ذلك العهد، ومنهم طُويس ومعبد وابن عائشة وابن سُرَيج وعمر الوادي والغريض ومالك بن أبي السمح وعَزة الميلاء وجميلة وسلامة القَسّ، ولحق بهؤلاء طبقة على الحاشية كان رجالها عاكفين على البسط في وادي العقيق وحول سَلْع، حتى سُمّوا بمخنثي العقيق. وانضم إلى هؤلاء شعراء الغزل كالأحوص وعمر بن أبي ربيعة ونُصيب وكثّير عزة وغيرهم.

ومجالس الغناء في ذلك العهد في المدينة ومكة كانت مظهراً بارزاً من مظاهر العيش لا يأنف من حضوره الأشراف. فقد ذكروا أن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب وهو من الأشراف جاء إلى منزل جميلة المغنية وطلب أن تغنيه ببيتين لامرىء القيس سَمع أنها تغنيهما،

فاندفعت تغنيه فسرّ بغنائها هو وأصحابه ثم انصرف. والبيتان هما:

ولّمـا رأت أن الشريعـةَ همّهـا وأن البياضَ من فرائصها دامي
تَيَمَّمت العينَ التي عند ضـارج يفيء عليها الظل عَرمضها طامي

وكان الله قد أنقذ بهذين البيتين من الموت جماعة من المسلمين كانت في طريقها إلى النبي ﷺ.

ويـروى أيضـاً عن جميلة المغنية وكـانت في المدينة أن ابن أبي عتيق وعمر بن أبي ربيعة والأحوص بن محمد أتـوا منـزلـها ودخلوا عليهـا. فلما جلسـوا قـال عمـر بن أبي ربيعـة: إني قصـدتـك من مكـة للسـلام عليـك، وأحب أن تفرغي لنـا نفسك هـذا اليوم وتخلي لنـا مجلسـك. فقالت: أفعل. وقـال لها الأحـوص: أحب أن لا تُغني إلاّ ما أسـألك. فلم تقبل. ثم ترك الخيار لها. فأخذت العـود وغنت بشعر عمـر بن أبي ربيعة:

تمشي الهُـوَيْنَى إذا مَشَت فُضُـلا مشي النزيفِ المخمور في الصَّعَـد
تظلُّ مِـنْ زَورِ بيت جارتها واضعـةً كفّهـا عـلى الكبـد
يـا مَن لِقلبٍ متيَّم سَـدم عـانٍ رهـينٍ مُكلَّم كمِـد
أَزْجُـره وهـو غـير مُـزْدَجـر عنهـا وطرفي مُكَحَّـل السَّهد

فسمع للبيت زلزلة وللدار همهمة. وأُعجب الحاضرون بالغنـاء، وأخذوا في الحديث. ثم أخذت العود وغنت بشعر الأحوص:

شـطت سـعـاد وأمسى الـبـين قـد أَفِـدا
وأَورثـوكَ مـقـامـاً يَـصـدَع الـكـبـدا
لا أسـتـطيـع لهـا هـجـراً ولا بُـعُـداً
ولا تـزال أحـاديـثـي لهـا جُـدُدا

فاستخف الطرب الحاضرين وصفقوا بـأيديهم وفحصوا بأرجلهم

وحرّكوا رؤوسهم وداموا على تلك الحالة مدة وهي تغنيهم. ثم أحضر الغداء فأكل الحاضرون وشربوا. وبعد الاستراحة أخذت جميلة العود وغنت بشعر عمر:

ولقد قالت لجارات لها كالمها يلعبن في حجرتها
خُذن عني الظل لا يتبعني ومضت تسعى إلى قُبَّتها
لم تعانق رجلاً فيما مضى طفلة غيداءُ في حلتها
لم يطش قط لها سهم ومن تَرمِهِ لا ينجُ من رميتها

فطرب عمر طرباً شديداً حتى إنه شق قميصه إلى أسفله فصار القميص كالقباء. ثم انصرف القوم.

هذه صورة لمجلس من مجالس الغناء في مكة والمدينة كان يجتمع فيها الشريف وغير الشريف مع الشاعر وطالب الطرب ورواد الأنس والمغرمين بالغناء، والكلّ راغب في ذلك هرباً من الخوض في المهاترات الحزبية وابتعاداً عن الشبهة والظن. وكان أكثر الناس ابتعاداً عن مواضع الشك أقربهم إلى لب الخلاف وصميم النزاع كابنة الخليفة أو ابن الخليفة أو أحد أصحاب الدعوة أو المقربين لزعيم من زعمائها.

سكينة بنت الحسين رضي الله عنه تزوجت أربع مرات بالفعل، منها ثلاث مرات بعد مقتل أبيها. وخطبها عبدالملك بن مروان فردته وكانت هي تحت زوجها الرابع زيد بن عمرو بن عثمان قد أخذت في الاهتمام بالشعر وبمجالسة الشعراء، وبالغناء وذلك ابتعاداً منها عن الانخراط في أعمال الدعوة إلى آل البيت، وكان لها في المدينة منادمات ومجالس مع الشعراء ورواتهم، أمثال عمر بن أبي ربيعة ونُصيب وكثيِّر وجميل بن معمر وغيرهم، وكان لها مجالس مع المغنين والمغنيات مثل ابن سُريج وعزة الميلاء، وذكروا عنها اجتماعاً مع جرير والفرزدق وكثيِّر عزة وجميل بثينة ونصيب كما ذكروا عنها حديثاً في الشعر مع عروة بن أذينة.

ويروى أن نسوة اجتمعن في منزل سكينة في المدينة فذكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظرفه وحسن مجلسه وحديثه وتمنِّينه، فبعثت سكينة إليه رسولاً وهو يومئذ في مكة، ووعدته أن يأتيها في الصورين في ليلة سمتها له فوافاها على رواحله ومعه الغريض، فحدّثها وحدث نسوتها حتى وافى الفجر وحان انصرافهن.

ثم عاد إلى مكة، وقال:

ألِمم بزينب إن البين قد أَفِدا
قَلَّ الثواءُ لئن كان الرحيل غدا
قد أقسمت ليلة الصورين جاهدة
وما على الحر إلّا الصبر مجتهدا
لِأختها ولأخرى من مناصفها
لقد وَجَدت به فوق الذي وجدا
لَعمرُها ما أراني إن نوى نزحت
ودام ذا الحب إلّا قاتلي كمدا

فلما كان عمر في مكة ومعه الغريض قال: يا غريض إني أريد أن أخبرك بشيء فيه نفعك. إني قد قلت في الليلة التي كنا فيها عند سكينة شعراً، فامض به إلى النسوة وأنشدهن إياه وأخبرهن أني وجهت بك في هذا الشعر قاصداً. فحمل الغريض الشعر ورجع إلى المدينة فقصد سكينة وأخبرها بالذي جاء إليها من أجله. فوجهت إلى النسوة وجمعتهن في منزلها وأنشدتهن الشعر. ثم قالت للغريض أن يغني بالشعر فغنى.

* * *

وإبراهيم بن المهدي هو أخو هارون الرشيد وعمّ الأمين

والمأمون. ادّعى الخلافة في أيـام الفتنة بـين الأمين والمـأمون ولم يـوفّق، وغلب المـأمون عـلى الـدولـة في النهـايـة، وطلب إبـراهيم يـريـد قتله. واختفى ابـراهيم منه مـدة، ثم عفا المـأمون عنـه. فانصرف إلى الغنـاء والطرب ولجّ في ذلك حتى لا تظن به الظنـون ولا يعلق به شـك في أنه طالب للخلافـة أو عامـل سرًّا ضد المـأمون. وكـان شـاعـراً وبارعـاً في الضرب على العود تساعده في ذلـك أخته عُلَيّـة، وكانت مغنيـة مجيدة.
وقال عنه صاحب الأغاني: «فلما أمّنه المـأمون تهتـك بالغنـاء وفي الطرب وكان يخرج من عنده دائماً مع المغنين، خوفاً منه وإظهـاراً له أنـه قد خلع ربقة الخلافـة من عنقه وهتـك ستره فيهـا حتى صار لا يصلح لهـا». وكان يغني للمأمون وللمعتصم آبنيْ أخيه الرشيد، وله معهمـا مجالس أنس كـان يشترك فيها معه مُخارِق المغني.

* * *

وكان المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبدالله بن النـاصر لدين الله آخر ملوك الـدولة الأمـوية في الأنـدلس عند تـولي بني جهور عليها مدة من الزمان قبل أن تعود. وكانت ولّادة ابنة المستكفي وعليهـا وقعت مسؤوليـة اسـترداد الحكم للدولـة الأمـويـة بـالنـظر إلى أنها ابنـة المستكفي. ولكن الطلب باسـترداد الحكم فيه مشقـة لا تطاق وينـطوي عـلى مخاطـر تودي بـالحياة، وكـانت ولّادة تدرك ذلـك كله، فـأحجمت وانغمست في الشعـر والغنـاء، وفي الأنس والسمـر والسهـر حتى لا تصلح لزعامة سياسية ولا تتمكن من تدبير المكائد ووضع الخطط لحركة حزبيـة. واشتهـرت في الغرب شهـرة عُلية بنت المهـدي في الشرق، لـولا أن علية كانت أقل انهماكاً في ما انهمكت فيه ولادة. وكانت جريئة ماجنـة وكان لهـا منتدى في قرطبة ينتابه الأدباء والشعراء للهو في كثيـر من الأحيان. ووقعت في حب ابن زيدون الوزير المعروف بأبي الوليد، وجرى بينهما مخاطبـات شعرية عاطفية، أشهرها قصيدة ابن زيدون النونية التي مطلعها:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينـا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وكان الوزير ابن عبدوس يحب ولادة ولكنها كانت تكره مسامـرته والاتصال به. وبسبب المنافسة على حبها بين ابن زيدون وابن عبـدوس كتب ابن زيدون رسالته المشهورة إلى ابن عبدوس على لسان ولادة.

وكـانت لولادة مـداعبات شعـرية مـع عدد من الأدبـاء والشعراء منهم الأصبحي.

وهكذا كانت حياة ولادة في عزلة عن السياسة وعن الأحزاب.

الجواري

الجواري في الدولة الإسلامية العربية طبقة من طبقات النساء، من جملة الإماء والموالي والقيان والمغنيات والسراري والخدم والمولّدات. وكانت الجواري في أول الأمر من السبي ثم من الجلَب بالشراء، وكان الأثرياء كالأمراء والخلفاء يقتنون منهن ما قدروا عليه حتى صار عددهن عند الخلفاء يعد بالمئات، وقد يبلغ العدد قريباً من ألف، وكانوا يتهادون الجواري أو يشترونهن بمئات الآلاف من الدراهم أو بالألوف من الدنانير للجارية الواحدة، وذلك بحسب جمالها أو حذقها في الغناء أو معرفتها بالشعر، وكثير من الجواري كن شاعرات، مثل عِنان جارية الناطفي ودنانير جارية يحيى بن خالد البرمكي ومحبوبة جارية المتوكل. ومن الجواري التركية والرومية والأرمنية والحبشية. وكان للجواري شأن يذكر ونفوذ في أمور الدولة، كما جرى مع ذات الخال والرشيد أو مع شجرة الدر في مصر، وكان لهن شأن مع الشعراء. كشأن سلّامة مع الأحوص وجوهر مع مطيع بن إياس وبنان مع الحسن بن وهب. وللجواري شأن في تاريخ الشعر والأدب والغناء، ولهن دور في تلطيف جو العيش وفي تهذيب الأذواق وإرهاف الأحساس بفضل دماثة الخلق ولين الجانب وحسن المحضر وجمال الجسم ورقة المشاعر. والجواري على أنواع، وبحسب هذه الأنواع يكون الاقتناء، ونحن لا نستطيع الإتيان

بمثالٍ على كل نوع، وإنما نكتفي بذكر البعض للدلالة على الكلّ.

كان في الكوفة رجل اسمه ابن رامين وكان صاحب قِيان وجوارٍ، واشتهر من بين جواريه ثلاث جوار هن سلامة الزرقاء وسُعدة وربيحة، أما ربيحة فقد آلت إلى محمد بن سليمان، وكانت مغنية محسنة وسُعدة اشتراها من ابن رامين صالح بن علي بتسعين ألف درهم، وكان يشبب بها إسماعيل بن عمار الأسدي وقال فيها:

يا سُعْدة القينة البيضاء أنتِ لنا
أُنس لأنكِ في دار ابن رامين
لا تَحْسَبِنّ بياضَ الجص يؤنسني
وأنتِ كنتِ كمثل الخزّ في اللِّين

وقال إسماعيل بن عمار: كنت أختلف إلى منزل ابن رامين فأسمع جاريته الزرقاء وسُعدة. وكانت سُعدة أظرف من الزرقاء، فأُعجبت بها، وعلِمت هي ذلك مني وكانت كاتبة، فكتبتُ إليها أشكو ما ألقى بها، فوعدتني، وكتبت إليها رقعة مع بعض الخدم هناك:

يا ربّ إن ابنَ رامين له بقر
عِين وليس لنا غير البراذين
فإن تجودي بذاك الشيء أُحْيَ به
وإن بخلتِ به عني فزنيني

فكتبت إلي: حاشاك من أن أزنّيك، ولكني أسير إليك فأغنيك وأُلهيك وأُرضيك. أما سلامة الزرقاء فالأصل من الحجاز، وكانت مغنية حاذقة جميلة ظريفة تقول الشعر، وقال عنها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف لمّا اشتراها، ما رأيت خصالاً أربع اجتمعن في امرأة مثلها: حسن وجهها وحسن غنائها وحسن شِعرها وحِذقها، وكان محمد بن الأشعث يميل إليها وقال فيها:

أمسى لسلّامة الزرقاء في كبدي
صَدع مُقيم طَوالَ الدهر والأبد
لا يستطيع صَناع القوم يَشْعَبُه
وكيف يُشْعَب صدع الحب في كبدي

وكانت سلّامة في الأصل في المدينة قبل أن تكون في الكوفة، وقد قرأت القرآن وروت الأشعار وقالت الشعر وغنت، وكان الشاعران عبد الرحمن بن حسان والأحوص بن محمد يختلفان إليها يروّيانها الشعر وينشدانه إياها، فأحبت الأحوص وصدت عن عبد الرحمن، فقال لها عبد الرحمن:

أرى الإقبالَ منكِ على خليلي ومالي في حديثكما نصيب

فقالت له:

لأنّ اللَّهَ عَلَّقه فؤادي فحاز الحبَّ دونكم الحبيب

وقال الأحوص لعبد الرحمن:

خليلي لا تلمها في هواها ألذّ العيش ما تهوى القلوب

فحقد عبد الرحمن بن حسان على الأحوص. ثم إنه خرج إلى يزيد بن عبد الملك في دمشق ومدحه، فأكرمه يزيد وأعطاه. فلما أراد الانصراف من عند يزيد قال: يا أميرَ المؤمنين، عندي نصيحة. قال: ما هي؟ قال: جارية خلّفتها في المدينة من أجمل الناس وأكملهم وأعقلهم، ولا تصلح أن تكون إلا لأمير المؤمنين وفي سُمّاره. وقصد عبد الرحمن من هذه النصيحة هو التفريق بين الأحوص وسلّامة، فأرسل يزيد إلى سلّامة واشتراها وحملت إليه، فأُعجب بها وفضلها على جميع مَن عنده من الجواري.

وعاد عبد الرحمن إلى المدينة ومرّ بالأحوص وهو قاعد على باب داره مهموماً وأراد أن يزيده همّاً على همٍّ فقال له:

يـا مُبْتَـلى بـالحب مفـدوحـا — لاقـى من الحـب تـبـاريحـا
ألجمـه الحـب فـما يـنتـهـي — إلّا بكـأس الشوق مصبـوحـا
وصـار مـا يُعجبـه مُغلَقـاً — عنـه ومـا يكـره مفتـوحـا
قـد حـازهـا من أصبحت عنـده — ينـال منهـا الشمَّ والـريحـا
خـليفـةُ الله فـسـلّ الهـوى — وعـزّ قلبـاً منـك مجـروحـا

فأمسك الأحوص عن جوابه. وبعد أيام أراد شابـان من بني أمية الوفادة إلى يزيد في دمشق، فأتاهما الأحوص وسألهما أن يحملا له كتاباً وجّه به إلى سلاّمة وقال فيه:

سـلاَّمَ، ذِكـرك مُلْصَق بلسـاني — وعـلى هـواك تعـودني أحـزاني
مـالي أراكِ في المنـام مـطيعـةً — وإذا انتبهتُ لَجَجْتِ في العصيـان
أبـداً محبـك ممسـك بفـؤاده — يخشى اللجاجة منكِ في الهجران
إن كنتِ عـاتبـةً فـإني مُعتِب — بعـد الإسـاءة فـاقبلي إحسـاني
لا تقتـلي رجـلاً يـراكِ لمـا بـه — مثـلَ الشراب لِغُلة الـظمـآنِ
ولقـد أقـول لقـاطنـين من آهلنـا — كـانـا عـلى خُلُقي من الإخـوان
يـا صـاحبيّ عـلى فؤادي جمـرة — وبـرى الهوى جسمي كـما تريـان
لا أستـطيـع الصـبر عنهـا إنها — من مهجتي نـزلت بكـل مكـان

ولكنّ الأحوص لم يستطع الصبر، فخرج إلى يزيد مادحاً، فقـرّبه يزيد وأكرمه. ولمّا كان الأحوص في القصر دسّت إليه سلاّمة خادماً وأعطته مالاً على أن يدخل الأحوص إليها. فأخبر الخادم يزيد بذلك، فقال له يزيد: امضِ برسالتها وافعل كما أمرتك. فأدخل الخادم الأحوص إليها، وجلس يزيد بحيث يراهما ويسمع حديثهما. فلما رأت الجاريـة الأحوص بكت إليه وبكى إليها، وجعل كلٌّ واحـد منهما يشكـو إلى صاحبـه شدة الشوق. وظلّا يتحدثان حتى السحر من غير ريبة، ويزيـد يرى ويسمـع حتى إذا همّ الأحوص بالخروج والتوديع قال:

أمسى فؤاديَ في همٍّ وبَلبال
مِن حبّ مَن لم أزل منه على بال

فقالت:

صحا المحبون بعد النّأي إذ يَئِسوا
وقد يَئِست وما أصحو على حال

فقال:

مَن كان يسلو بيأس مِن أخي ثِقَةٍ
فمن سَلاَمَة ما أمسيت بالسالي

فقالت:

والله والله لا أنساكَ يا سكني
حتى تفارقَ مني الروح أوصالي

فقال:

والله ما خاب من أمسى وأنتِ له
يا قرة العين في أهلٍ وفي مال

ثم ودّعها وخرج. فأخذه يزيد ودعا بسلّامة وقال لهما: أخبراني عما كان جرى بينكما في ليلتكما واصدقاني، فأخبراه وأنشداه ما قالا، ولم يخرما حرفاً ولا غيّرا شيئاً مما سمعه هو بنفسه، فقال يزيد للأحوص: أتحبها يا أحوص؟ قال: أي والله يا أميرَ المؤمنين.

حُبًّا شديداً تليداً غيرَ مُطَّرَفٍ
بين الجوانح مثلَ النار يضطرم

ثم التفت يزيد إلى سلامة وسألها: أتحبينه؟ فقالت: نعم يا أمير المؤمنين.

حبًّا شديداً جرى كالروح في جسدي
فهل يفرِّق بين الروح والجسد

فقال يزيد: خذها يا أحوص فهي لك. فانصرف بها الأحوص إلى الحجاز.

ثم إن سلّامة الزرقاء صارت بعد الأحوص في مِلك جعفر بن سليمان اشتراها بثمانين ألف درهم، ولا يعرف ما جرى بها بعد الأحوص. فإذا كان جعفر هذا قد اشتراها في زمن المنصور العباسي فلا بد أن تكون قد تقدّمت في السن، وعلى كلّ فإنها لما صارت عند جعفر بن سليمان سألها يوماً: هل ظفِر منك أحد ممن كان يهواكِ بخلوة أو قبلة؟ فقالت: لا والله، إلّا يزيد بن عون العِبادي الصيرفي فإنه قبلني قبلةً وقذف في فمي لؤلؤة بعتها بثلاثين ألف درهم، فلم يزل جعفر يحتال له حتى وقع في يده فضربه بالسياط حتى مات.

أبو السائب المخزومي

أبو السائب المخزومي واسمه عبد الله رجل طريف محبَّب إلى النفس أنيس المعشر ليس له مهمة في دنياه إلّا في الشعر والشعراء من الطبقة الرفيعة. كان مغرماً بالشعر الجيّد يطلبه أين يجده ويسعى لسماعه من أربابه أو حذاقه. وقد بلغ به شغفه بالشعر أنه كان إذا طرب من سماع شعر خرج عن طوره وأتى بما كان لا يأتي به عادة في سلوكه. وكان مع ذلك محترم الجانب يجلّه أصحابه ويحبونه، وكان أشراف المدينة يستظرفونه ويقدمونه لشرف منصبه وحلاوة ظرفه، وكان أبو السائب خليطاً للنبي ﷺ، وكان النبي إذا ذكره يقول: نعم الخليط كان أبو السائب لا يشاري ولا يماري، أي لا يشارر ولا يماري. وله أخبار حسنة تدل على حسن ذوقه في الشعر والغناء، ورقة عاطفته. ومع ذلك فقد كان تقياً ديّناً، وقيل إنه كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، وكان مغرماً بغناء ابن سُرَيج ومعبد، ويحكى عن معبد المغني أنه رأى أبا السائب يوماً في المسجد، فقال له أبو السائب: ما عندك من مبكيات ابن سُريج، فقال معبد: عندي قوله:

ولهن في البيت العتيق لَبانة ... والبيت يعرفهن لو يتكلم

لو كان حيًّا قبلهن ظعائناً ... حيّا الحطيم وجوهَهنّ وزمزم

لبثوا ثلاثَ منىً بمنزل غبطة ... وهمُ على سفر لَعمرك ما همُ

متجاوزين لغير دار إقامة لو قد أجدّ تفرق لم يندموا

فقال له أبو السائب: غَنِّه! فغناه معبد. فطرب أبو السائب، ثم قام يصلي. والشعر لعروة بن أُذينة.

ويحكى عن أبي السائب أيضاً أنه أتى عروة بن عبيد الله الزبيري فرحب به عروة وسأله: ألك حاجة؟ فقال: نعم أبيات لعروة بن أذينة بلغني أنك سمعتها منه. وكان عروة الزبيري قد سمع عروة بن أذينة ينشدها وهو نازل في داره في العقيق. فأنشد عروة الأبيات وأبو السائب يسمع:

إن التي زعمت فؤادَكَ مَلّها خُلِقت هواك كما خُلِقْتَ هوًى لها
فيكَ الذي زعمت بها، وكلاكما أبدى لصاحبه الصبابة كلها
ولَعمرُها لو كان حبك فوقها يوماً وقد ضحيت إذن لأظلها
وإذا وَجَدتَ لها وساوسَ سلوةٍ شفع الضمير إلى الفؤاد فسلّها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فأَدقّها وأجلّها
لما عرضتُ مسلماً لي حاجة أخشى صعوبتها وأرجو ذُلّها
منعت تحيتَها فقلتُ لصاحبي ما كان أكثَرَها لنا وأقلّها
فدنا وقال: لعلّها معذورة في بعض رِقبتها فقلت لعلها

ولما سمع أبو السائب:

فدنا وقال لعلها معذورة في بعض رقبتها فقلت لعلها

قال: هذا والله الدائم الصبابة الصادقُ العهد، لا الذي يقول:

إن كان أهلكِ يمنعونكِ رغبةً عني فأهلي بي أضنّ وأرغب
فلئن دنوتِ لأَدْنُونَّ بعفة ولئن نأيتِ لَما ورائيَ أرحب

لقد عدا هذا الأعرابي طوره وتجاوز قدره، وإني لأرجو أن يغفر الله لصاحب الأبيات الأولى لحسن الظن بها فطلب العذر لها. فعرضتُ

عليه الطعام فقال: لا والله. ما كنت لأخلط بهذا الشعر طعاماً حتى الليل، وانصرف.

وكان أبو السائب إذا رأى عاشقين عطف عليهما ولم يأنف من أن يكون الرسول بينهما إن كان ذلك مما يبرد غلتهما في عفاف الحب، فقد ذكروا أن امرأة في المدينة اسمها سُليمة المشاربية كانت تعشق رجلاً من الموالي اسمه أفلح، فأتاها يوماً أبو السائب وسألها: هل أتاكِ من حبيبك رسول؟ قالت: لا. قال: فهل قلت في ذلك شعراً؟ قالت: نعم، ثم أنشدتُه:

ألا ليتَ لي نحو الحبيب مبلّغاً ... يبلّغه التسليمَ ثم يقول

سُليمة نِضو ما تُرَجّى حياتها ... من الشوق والشوق الشديد قتول

تعالج أحزاناً وتبكي صبابة ... وأنتَ لما تلقاه فيك جهول

فقال لها أبو السائب: أنا والله رسولك إليه. فحفظ أبو السائب الشعر وتوجه نحو أفلح في يوم صائفٍ شديد الحر، فلقيه رجل من الأنصار فقال له: يا أبا السائب، من أين أقبلت؟ قال: من عند سليمة المشاوبية. قال: وإلى أين تريد؟ قال: أريد أفلح مولى الزهريين أبلغه رسالتها. قال: يا أبا السائب، أفي مثل هذا الوقت؟ قال: إليك عني يا ابن أخي، فإن الجنة حُفّت بالمكاره، وما عُبد الله إلاّ بالصبر على مثل ما ترى. ومثل ذلك حكاية لابن أبي عتيق.

وحدثوا عنه حديث الزبير بن بكار قال: أتاني أبو السائب المخزومي ليلة بعد ما رقد الناس وفي ساعة متأخرة ودق عليّ الباب، فأشرفت عليه وسلمت، وقلت: هل من حاجة؟ فقال: سهرتُ وتذكرتُ أخاً لي استمتع بحديثه فلم أجد أحداً سواك. فلو مضيت بنا إلى العقيق فتناشدْنا الشعر وتحدّثنا! قلت، نعم، ونزلت إليه، ثم مضينا إلى العقيق وتناشدنا الأشعار إلى أن أنشدته بيتين للعرجي:

باتا بأنعم ليلة حتى بدا صبح يُلَوِّح كالأغرّ الأشقر
فتلازما عند الفراق صبابة أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فطرب أبو السائب وأخذ يردد:

فتلازما عند الفراق صبابةً
أَخْذَ الغريمِ بفضلِ ثوب المُعْسِرِ

ومضى وأقسم أن لا يكلّم أحداً إلاّ بهذا البيت حتى يصل إلى بيته. ولقيه في الطريق عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب فسلّم عليه وقال له: كيف أنت يا أبا السائب؟ فقال له:

فتلازما عند الفراق صبابة أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فظن عبد الله بن الحسين أن أبا السائب قد أصيب في عقله.

ثم لقيه قاضي المدينة فسلم عليه وسأله عن حاله، فأجاب:

فتلازما عند الفراق صبابة أخذَ الغريم بفضل ثوب المُعسِر

وظل أبو السائب على هذه الحال حتى وصل إلى بيته.

ولأبي السائب موقف شبيه بموقفه من بيت عروة بن أذينة:

فدنا وقال لعلها معذورة في بعض رقبتها فقلت لعلها

فقد حدثوا عن عبد الملك بن عبد العزيز أن أبا السائب المخزومي سأله أن ينشده أبياتاً للأحوص، فأنشده:

قالت وقلت تحرّجي وصلِي حبلَ امرىء بوصالكم صَبّ
واصِل إذن بَعلي فقلت لها الغدر شيء ليس من ضَرْبي
ثنتان لا أدنو لوصلهما عرس الخليل وجارة الجنب
أما الخليلُ فلستُ فاجعه والجار أوصاني به ربيّ
عوجوا كذا نذكرْ لغانية بعضَ الحديث مَطِيّكم صحبي
ونَقل لها: فيم الصدود ولم نذنب بل آنتِ بدأت بالذنب
إن تُقبلي نُقبل ونُنزلكم مِنا بدار السهل والرَّحب

أو تُـدبـري تكـدُرْ معيشتنـا   ويَصدَّ عَنْ متـلائم الشعب

فأقبل عليّ أبو السائب وقال: يا ابن أخي، هـذا والله المحب عيناً، لا الذي يقول:

وكنتُ إذا الخليـل أراد صَرْمي   وجدتُ وراءيَ منفسَحاً عريضا

وكان أبو السائب المخزومي ذوّاقة للشعر يميز الطيب منه ويستمتع به وكان يُسأل عن الشعر يرى رأيه فيه. فقد ذكروا أن كثير عزة أنشد ابن أبي عتيق شعره الذي يقول فيه:

ولست براضٍ من خليل بنائلٍ   قليـل ولا أرضى لـه بقليـل

فقال له ابن عتيق: هذا ليس بكلام عاشق، وأصدق منك عمر بن أبي ربيعة حيث يقول:

ليت حظي كلحظة العين منها   وكثيرٌ منها القليلُ المُهَنـا

أو حيث يقول:

فعِدي نائِلاً وإن لم تُنيلي   إنـهُ يقنِع المحبَّ الرجاءُ

أو ابن قيس الرقيات حيث يقول:

رُقَيَّ بعيشكم لا تهجرينا   ومنّينا المُنَى ثم امطُلينا
عِدينا في غَدٍ ما شئتِ إنّا   نحب وإن مطلتِ الواعدينا
أغرّكِ أنني لاصبرَ عندِي   على هجرٍ وأنك تصبرينا
ويوم تبعتكم وتركت أهلي   حنينَ العَود يَتّبع القرينا
فإمّا تنجزي عدتي وإمّا   نعيش بما نؤمل منك حينا

ثم ذُكر حديث ابن أبي عتيق لأبي السائب المخزومي وسئل رأيه، فقال أبو السائب: صدق ابن أبي عتيق وفقه الله، ألا قال كثيّر كما قال ابن المولى:

وأبكي فلا ليلى بكت من صبابة
لباكٍ ولا ليلى لذي الود تبذلُ
وأخنع بالعتبى إذا كنتُ مُذنباً
وإن أذنبت كنتُ الذي أتنصّل

وحدث عبد الرحمن بن غُرير الزُّهري أنه أنشد أبا السائب المخزومي قول ابن قيس الرقيات:

قد أتانا من آل سُعدي رسول
حبذا ما يقول لي وأقول
من فتاةٍ كأنها قرنُ شمسٍ
ضاق عنها دمالج وحجول
حَبَّذا ليلتي بمرّة كلب
غال عني بها الكوانينَ غُول

فقال أبو السائب: يا ابن الأمير، ما تراه كان يقول وتقول؟ فقلت:

حديثاً كما يسري الندى لو سمعته
شفاك من أدواءٍ كثير وأسقما

فطرب أبو السائب، وقال لعبد الرحمن: كأنك فهمتَ ما في نفسي.

وحدث ابن أبي الزناد أنه كان عند الحسن بن زيد في بطحاء ابن أزهر على بعد ستة أميال من المدينة في ليلة قمراء مع عدد من الرفاق بينهم أبو السائب المخزومي وكان مشغوفاً بالسماع والغزل وكان بين أيدي الحضور طبق عليه فريك، وكان الحسن بن زيد عامل المنصور على المدينة، فأنشد الحسن قول داود بن سلم وجعل يمدّ به صوته ويُطرّبه:

فعرَّسنا ببطنِ عُرَيتِنات ... ليجمعنا وفاطمةَ المسير
أتنسى إذ تعرَّض وهو بادٍ ... مُقلَّدها كما برق الصَّبير
ومن يُطع الهوى يعرف هواه ... وقد ينبيك بالأمر الخبير
على أني زفرت غداة هرش ... فكاد يُريبهم مني الزفير

فطرب أبو السائب وأخذ الطبق فوحش به إلى السماء فوقع الفريك على رأس الحسن بن زيد فقال الحسن: مالك ويحك أجننت؟ فقال له أبو السائب: أسألك بالله وبقرابتك من رسول الله إلّا ما أعدت إنشاد هذا الصوت، فأعاد الحسن إنشاد الأبيات ومدّ صوته بها. ولما خرج أبو السائب قال لابن أبي الزناد: لو علمت أنه يقبل مالي لدفعته إليه بهذه الأبيات.

ومن غرائب أبي السائب المخزومي ما حدث به الخليل بن سعيد قال: مررت بسوق الطير فإذا الناس قد اجتمعوا واكتظوا فنظرت فإذا أبو السائب المخزومي قائم على غراب يباع وقد أخذ بطرف ردائه وهو يقول للغراب: يقول لك قيس بن ذريح:

ألَا يا غرابَ البين قد طرتَ بالذي
أحاذر من لبنى فهل أنت واقع

لِمَ لا تقع؛ ويضربه بردائه والغراب يصيح. فقال له أحدهم: أصلحك الله ليس هذا ذاك الغراب. فقال أبو السائب: لقد علمت، ولكن آخذ البريء حتى يقع الجريء.

وهذا البيت عن الغراب من أبيات يقول فيها قيس لبنى:

أتبكي على لبنى وأنت تركتها
وكنتَ كآتٍ حتفَه وهو طائع
فيا قلبُ صبراً واعترافاً بحبّها
ويا حُبَّها قع بالذي أنت واقع

ويـا قـلبُ خـبرني إذا شَـطّت الـنـوى
بـلبنى وبـانـت عنـك مـا أنـت صـانـع
أتـصـبر لـلبـين المـشِـتّ مـع الجـوى
أم آنـتَ امـرؤ نـاسي الحـيـاة فـجـازع
ألاَ يـا غـرابَ البـين قـد طـرت بـالـذي
أحـاذر مـن لـبـنى فـهـل أنـت واقـع

وحضر أبو السائب المخزومي مجلساً فيـه بصبص جاريـة يحيى بن نَفِيس فغنت الجارية:

قلبي حبيس عـليـكِ مـوقـوف   والعين عبرى والـدمـع مـذروف
والـنفس في حـسـرة فـعصيتهـا   قـد شَف أرجـاءَهـا التساويف
إن كنت بالحسن قد وُصِفتِ لنا   فـإنـي بـالهـوى لمـوصـوف
يـا حسرتـا حسـرةً أمـوت بهـا   إن لم يـكن لـديـكِ مـعـروف

فطرب أبو السائب من الشعر والغناء ونَعَر، وقـال لبصبص: لا أعرف للعلم قدراً إن لم أعرف لـك معروفـك. ثم أخذ قِناعها عن رأسهـا وجعل يلطِم ويبكي ويقـول لهـا: إني لَأرجـو أن يكـون لـك عنـد الله الأجـر والخير. وجعل يصيح ويقول: واغواثاه! يا الله لما يلقى العاشقون!

ومما يذكـر بمناسبـة قول عـروة بن أذينـة: فقلت لعلها، أنّ بثينة صاحبة جميل عَلِقت خُجنة الهلالي فجفاها جميل وقال:

وبـيـنـا حـبـال ذاتُ عـقـد لـبـثـنـةٍ
أُتِـيـح لهـا بـعض الـغـواة فـحـلّهـا
فـعُـدنـا كـأنّـا لم يـكـن بـيـنـنـا هـوى
وصـار الـذي حـلّ الحـبـال هـوًى لهـا

وقـالـوا: نـراهـا يـا جمـيـلُ تـبـدلـت
وغـيـرّهـا الـواشي فـقـلـت لـعـلـهـا

لـعـلّ حـبـالاً كـنـت أحـكـمـت عَـقـدهـا
أُتِـيـح لهـا واشٍ فـجـاء فـحـلّـهـا

* * *

الوادي

الوادي له مكانة عظيمة عند العرب في معيشتهم وفي عاطفتهم ومشاعرهم كما للوطن. فهو مسكنهم المفضل يجدون فيه الماء والكلأ ويتفيأون ظلاله في حرّ الصيف، وهو مربع القوم ومنزل الأحباب تحن إليه القلوب وتشتاقه النفوس. وهو مجرى السيل ومخيّم المسافر ومورد السابلة يجتمع فيه طلاب الماء وطلاب الراحة وطلاب السمر والأحباب. يدل على ذلك ذكر الوديان في معايش العرب وفي أشعارهم المنبئة عن وجدهم بها وتعلقهم بأخبارها. والوديان في الشعر العربي كثيرة، مذكورة في معرض الشوق والحنين والحب والذكر العطر، فهي لذلك في ذكرها جزء من كيان النفس العربية وركن من أركان معيشة العرب في الصحراء حيث لا بد لهم من الماء والكلأ والشجر الظليل، في مهد من الأرض لا وعورة فيها.

وذكر الشعراء أودية مختلفة كنَعمان الأراك ووادي المياه ووادي القصر في الشرق ووادي الطلح ووادي آش في الأندلس. ولعلّ أحسن ما قيل عن الوادي من حيث الماء والظلال والراحة قول المنازي وهو مشهور:

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ ... وقاه مضاعفُ الغيْث العميم
قصدنا نحوه فحنا علينا ... حنوّ المرضعات على الفطيم
يراعي الشمسَ أنّى قابلتنا ... فيحجبها ويأذن للنسيم

ويسقينا على ظمأ زلالاً ألذّ من المدام مع الكريم
تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

هذه صفة الوادي بصفة عامة وهذه محاسنه، وهذا الوادي صورة للوديان على العموم. وإذا خصصنا فإننا نذكر بصورة خاصة وادياً اسمه نَعمان الأراك، أكثر الشعراء من ذكره، وهو وادٍ وراء عرفة وذكره الأعرابي بقوله من جملة أبيات:

نسائلكم هل سال نعمانُ بعدكم وحُبّ إلينا بطنُ نعمانَ واديا

وذكره خَليد مولى العباس بن محمد حيث قال:

أما والراقصاتِ بذاتِ عِرق ومن صلّى بنعمانِ الأَراكِ

ويقول المرقش الأكبر:

تخيّرت من نعمانَ عودَ أراكة
لهند فمن هذا يبلغه هندا
ستبلغ هنداً إن سلمنا قلائص
مَهارى يُقطِّعن الفلاة بنا وخدا
فلما أنخنا العيسَ قد طال سيرها
إليهم وجدناهم لنا بالقِرى حُشْدا
فناولتها المسواكَ والقلب خائف
وقلت لها يا هند أهلكتنا وجدا
فمدّت يداً في حسن دلّ تناولاً
إليه وقالت لا أرى مثلَ ذا يُهدى

ويقول النميري، وكان في زمن الحجاج:

تضوّع مسكاً بطن نعمانَ إذ مشت
به زينب في نسوةٍ عطرات

فـأصـبـح مـا بـين الهَـمـاء فـصـاعـداً
إلى الجـزع جـزعِ المـاء ذي الـعُشرات
لـه أرج مـن مُجْـمَـر الهـنـد سـاطـع
تـطلَّع ريـاه مـن الـكَـفَـرات
تهـاديـنَ مـا بـين المـحـصَّـب مـن منىً
وأقـبـلـن لا شـعـثـاً ولا غَـبرات
مـررن بـفـخّ ثـم رحـنَ عـشـيـة
يُـلـبِّـين لـلرحمـن مـعـتـمـراتِ
يُخـبئـن أطـراف الـبـنـان مـن الـتـقـى
ويـقـتـلـن بـالألحـاظ مـقـتـدرات
تـقـسّـمـنَ قـلـبـي يـومَ نـعـمـانَ إنـني
رأيـتُ فـؤادي عـارم الـنـظرات
جَـلَوْن وجـوهـاً لم تَـلُحـهـا سـمائـم
حَـرورٌ ولم يُـشْـفَـعْـن بـالـسَّـبَرات
فـقـلـت يـعـافـير الـظبـاء تـنـاولـت
يَـنَـاعَ غـصـونِ الـورد مـهـتصِرات

والغريب أن يذكر نعمان الأراك شاعر أندلسي وهو ابن الصائغ حيث يقول:

أَسـكـانَ نـعـمان الأراك تـيـقـنـوا
بـأنـكـم في ربـع قـلـبـيَ سـكـان
ودومـوا عـلى حـفظ الـوداد فـطالمـا
بُـلِـيـنـا بـأقـوام إذا اسـتـؤمـنـوا خـانـوا
سـلوا الـلـيـل عـني مـذ تـنـاءت ديـاركـم
هـل اكـتـحـلت بـالـغـمض لي فـيـه أجـفـان

وهـل جَـرَّدت أسـيـافَ بـرق سـماؤكـم
فـكـانـت لهـا إلاّ جـفـونيَ أجـفـان

وللأبيوردي في نعمان الأراك قوله:

نـزلنا بنعـمان الأراك وللنـدى سقيطٌ بـه ابتلّت علينا المطارف
فَبتّ أُعـاني الوجـد والركبُ نـوَّم وقد أخذت مني السُّـرى والتنائف
وأذكر خوداً إن دعـاني إلى النوى هواها أجـابته الـدموع الـذوارف
لهـا في مغاني ذلـك الشعب منزل لئن أنكرته العين فالقلب عـارف
وقفت بـه والـدمـع أكـثره دم كـأنيِّ من جفني بنعـمان راعف

ووادي المياه وادٍ في اليمامة تحدث عنه ابن الدمينة في شعره حيث يقول:

ألا لا أرى وادي المـيـاه يُـثـيـب
ولا الـنـفس عـن وادي المـيـاه تـطيـب
أُحـبّ هـبـوط الـواديـين وإنـني
لمـسـتـهـترَ بـالـواديـنِ غـريـب
أحـقـاً عـبـادَ الله أنْ لـسـتُ وارداً
ولا صـادراً إلاّ عـليّ رقـيـب
ولا زائـراً وحـدي ولا في جمـاعـة
مـن الـنـاس إلاّ قـيـل أنـت مـريـب
وهـل ريـبـة في أن تحِـنّ نـجـيـبـة
إلى إلـفـهـا أو أن يحـن نـجـيـب
وإن الـكَـثـيـبَ الـفـرد من جـانـب الحـمى
إليّ وإن لم آتِـه لحـبـيـب

وذكر سُحيم عبد بني الحسحاس وادياً لم يذكر اسمه فقال:

ألا أيهـا الـوادي الـذي ضـمّ سـيـلُه
إلـيـنـا نـوى الحـسـنـاء حُـيـيـتَ واديـا

ويا ليتني والعامرية نلتقي
نرود لأهلينا الرياضَ الخواليا
كأنّ الثريا عُلّقت فوق نحرها
وجمرُ غضا هبّت له الريح ذاكيا

ووادي القصر في البصرة، وقال عنه الجاحظ: من أتى هذا الوادي ورأى القصر فيه رأى أرضاً كالكافور، ورأى ضِباباً تحترش وغزلاناً وسمكاً وصياداً وسمع غناء ملّاح في سفينته وحُداءَ جمال وراء بعيره، وفيه يقول الخليل بن أحمد:

زر واديَ القصر نعم القصر والوادي
في منزل حاضر إن شئتَ أو بادي
زُره فليس له شبه يقاربه
لا بدّ من زورة من غير ميعاد
تلقَ به السفن والظلمان حاضرة
والضبّ والنون والملاح والحادي

وقال فيه الخليل بن أحمد أيضاً:

يا جنةً فاقت الجنانَ فما	يبلُغها قيمة ولا ثمن
أَلِفْتُها واتخذتها وطناً	إن فؤادي لحبها وطن
زاوج حيتانَها الضباب بها	فهذه كَنَّة وذا خَتَن
أُنظر وفكر فيما نَطقتُ به	إن الأديبَ المفكِّر الفَطِن
من سفنٍ كالنعام مقبلة	ومن نعام كأنها سُفُن

وفي الأندلس واديان تحدث عنهما الشعراء بالإضافة إلى وديان أُخَر. فوادي الطلح في إشبيلية، كان المعتمد بن عباد ينتابه مع رُميكيته. وقال فيه نور الدين بن سعيد:

سائل بوادي الطلح ريح الصبا هل سُخِّرتْ لي من زمان الصّبا
كانت رسولاً فيه ما بيننا لن نأمنَ الرسلَ ولن نكتبا
يا قاتلَ اللّهُ أناساً إذا ما استؤمنوا خانوا فما أعجبا
هلّا رَعَوْا أنّا وثقنا بهم وما اتخذنا عنهم مذهبا
واذكر بوادي الطلح عهداً لنا لِلَّهِ ما أحلى وما أطيبا
بجانب العَطف وقد مالت الأغصان والزهر يَبُثُّ الصَّبا
والطير مازت بين ألحانها وليس إلّا مُعجِباً مطرِبا

وذكر ابن القوطية وادي الطلح فقال:

ضُحًى أناخوا بوادي الطلح عيسهم
فأوردوها عِشاءً أيَّ إيرادِ
أَكرِم به وادياً حل الحبيبُ به
ما بين زَند وخابور وفِرصادِ
يا وادياً سار عنه الركب مرتحلاً
بالله قُل أين سار الركب يا وادي
أبالغضا نزلوا أم لِلّوى عدلوا
أم عنك قد رحلوا خُلفاً لميعادي
بانوا وقد أورثوا جسمي الضنا وكأنْ
كان النوى همُ أولى بمرصاد

ووادي آش في جنوب غرناطة له ذكر في شعر حمدة بنت زياد الأندلسية حيث تقول:

أباح الدمع أسراري بوادٍ له للحسن آثار بوادي
فمن نهر يطوف بكل روضٍ ومن روضٍ يطوف بكل وادي
ومِن بين الظباء مهاة رملٍ سبت لبي وقد ملكت قيادي
لها لحظ ترده لأمر وذاك اللحظ يمنعني رقادي

إذا سدلت ذوائبَها عليه رأيتَ البدرَ في جنح السواد
كأنّ الصبح مات له شقيق فمن حزن تسربل بالحداد

وتحدث العرب أيضاً عن الجنان وقالوا في الدنيا أربع جنان وهي: شعب بَوّان، وصُغد سمرقند، ونهر الأُبُلّة، وغوطة دمشق، وقال الشعراء في مدحها أشعاراً. كما أنهم وصفوا الرياض والربيع والزهر ووصفوا الأنهار ومنافع المياه والبرك وأهمّ شيء عُنوا به الماء والخضرة والشجر وطيب النسيم وذلك لما عهدوه في الصحراء، في أول العهد.

وذكر أحمد شوقي وادي الطلح في قصيدة له قالها وهو في منفاه في الأندلس:

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نشجَى لواديك أم تأسى لوادينا
رمى بنا البينُ أَيْكاً غيرَ سامرنا أخا الغريب وظِلاًّ غيرَ نادينا

ثم يقول:

ويا مُعَطَّرة الوادي سرت سحراً فطاب كلّ طروح من مرامينا
ذكيةَ الذيل لو خِلْنا غِلالتها قميصَ يوسفَ لم نُحْسَب مغالينا
فلو جزيناكِ بالأرواح غاليةً عن طيب مسراكِ لم تنهض جوازينا

إذا اشتملتْ على اليأس القلوب..

في الشعر العربي أشعار كثيرة عن اليأس والرجاء، وأكثر هذه الأشعار بوحي من العقيدة الإسلامية أولاً ثم بوحي من طبيعة الإنسان. فالإنسان بالطبيعة ميال إلى الرجاء يخاف اليأس، وتعلقه بالرجاء ناشيء عن تعلقه بالحياة. وفي الأبيات التالية صورة واضحة لليأس يقابلها صورة واضحة للرجاء. والأبيات:

إذا اشتملت على اليأس القلوب وضاق بما به الصدر الرحيب
وأوطنتِ المكاره واطمأنّت وأرست في أماكنها الخطوب
ولم تَرَ لانكشاف الضرّ وجهاً ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاكَ على قنوط منك غوث يمنُّ به اللطيف المستجيب
وكلّ الحادثات إذا تناهت فموصول بها فرج قريب

والأبيات لأبي حاتم اللغوي، وتنسب أحياناً كما في الحماسة البصرية إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه. والمغزى موجود في البيت الآخر:

وكلّ الحادثاتِ إذا تناهت فموصولٌ بها فرج قريب

وهذا المعنى هو نفس المعنى في:

اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن ليلك بالبلج

ومثل قول أمية بن أبي الصلت:

لا تَضيقنَّ في الأمور فقد تُكشف غماؤها بغير احتيال
ربما تكره النفوس من الأمر له فَرجة كحلّ العقال

وهذا مثل قول إبراهيم بن العباس الصولي:

ولَرُبِّ نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فُرجت وكنت أظنها لا تفرج

فهل معنى ذلك أن الضيق إذا تناهى انقلب إلى فرج؟ كالماء ينقلب عند الغليان إلى بخار حينما يكون الغليان في أقصى درجات الحرارة للماء؟ وفي الرياضيات أمثلة على انقلاب الكميات من الموجب إلى السالب إذا وصلت إلى حد. وهذا معنى قولهم: إذا تناهى الشيء إلى حده انقلب إلى ضده، فالكرم إذا تناهى وأفرط انقلب إلى سَرَف، والكرم ممدوح، والسرف مذموم، حتى إنهم قالوا عن الجمال المفرط إنه فتنة فهو مذموم. والجمال العادي أو فوق العادي محبوب، ولكن الجمال إذا تناهى وجاوز الحد صار فتنة تخلب الألباب وتذهب بالعقول. والأمثلة على ذلك متعددة. ولعل أقرب مثال إلى ما نحن فيه، أن الخوف يؤدي إلى اليأس واليأس يؤدي إلى الراحة.

ولنعد إلى ما نحن فيه، فالأمر قد ينقلب إلى ضده عند التناهي أو عند الحرج. ولحظة الحرج في علم الطبيعة معروفة لا نريد أن ندخل فيها. وثمة وضع آخر وهو وضع الضيق ثم الخروج منه، أي وضع يجد الإنسان نفسه فيه، ثم يضيق هذا الوضع حتى يكاد الإنسان يختنق منه وإذا بمخرج يسنح ويخرج الإنسان منه، خذ مثلاً قول محمد بن وُهَيب:

ألَا ربما كان التصبّر ذلةً
وأدنى إلى الحال التي هي أسمجُ

ألا ربما ضاق الفضاء بأهله
وأمكن من بين الأسنة مخرجُ

وقول محمد بن مخلدَ:

تخطي النفوس على العيان — وقد تُصيب على المظنّة
كم من مضيق في الفضاء — ومخرج بين الأسنّة

والمعنى هنا واضح، وهو أن الشدة تحمل بين طياتها فرجاً، كقولنا: إن في الداء دواء، أو: إن بعد العسر يسراً كما في القرآن الكريم. وانظر إلى ما يقوله الحسين بن مطير:

إذا يسّر اللَّهُ الأمورَ تيسرت
ولانت قواها واستقاد عسيرها
فكم طامعٍ في حاجة لا ينالها
وكم آيسٍ منها أتاه يسيرها
وكم خائفٍ صار المخوفَ ومقترٍ
تموَّل والأحداث يحلو مريرها
وقد تغدر الدنيا فيمسي غنيّها
فقيراً ويغنى بعد بؤسٍ فقيرها
وكم قد رأينا من تكدّر عيشةٍ
وأخرى صفا بعد اكدرارٍ غديرها

فالحسين بن مطير يرى أن الحوادث تجري على الحظ أو تجري على التقادير أو على الطبيعة. وانظر قول الربيع بن أبي الحُقَيْق:

وكلّ شديدةٍ نزلت بقومٍ — سيأتي بعد شدتها رخاء
فإن الضغط يحويه وعاء — ويتركه إذا فرغ الوعاء
وما مُلِيء الإناءُ وشُدّ إلاّ — لِيَخرج ما به امتلأ الإناءُ

والمعنى هنا دقيق. فإن الضغط بسبب امتلاء الوعاء يزيله تفريغ الوعاء، وإذا مُلِىء الإناء لم يبق فيه فراغ. فالملء والفراغ حالتان للإناء إذا حصلت الأولى فقدت الثانية وإذا حصلت الثانية فقدت الأولى، والحالتان متداولتان، وهذا معنى قوله:

وكلّ شديدة نزلت بقوم — سيأتي بعد شدتها رخاء

وانظر إلى قول إسماعيل بن حمّاد الأزدي:

لا تعتبنّ على النوائب — فالدهر يُرغِم كلَّ عاتبْ
واصبر على حدثانِه — إن الأمور لها عواقب
فلكلّ صافية قذى — ولكل خالصة شوائب
كم نعمة مطوية — لك تحت أنيابِ النوائب
ومسرةٍ قد أَقبَلت — من حيث تنتظر المصائب

وعبّر عن تداول حالتي الدهر من عسر ويسر قيس بن الخطيم بقوله كقول الربيع بن أبي الحُقيق:

وكلّ شديدة نزلت بحي — سيأتي بعد شدتها رخاءُ
كذاك الدهر يصرف حالتيه — ويُعقِب طلعة الصبح المساءُ

وعبّر عن ذلك أيضاً عبدُ الله بن المخارق الشيباني:

الدهر حالان همّ بعده فرج
وفرجة بعدها هَمُّ بتعذيب
مَن يَلقَ بلوى ينله بعدها فرج
والناس من بين ذي رَوْح ومكروب

وعبد الله بن الحر الجُعفي حيث يقول:

فلا تحسبنّ الخيرَ لا شرّ بعده
ولا الشرّ مرجوحاً على مَن ترتبا

ولكن خليطاً مِن نعيم وشدة
فإن يأتِ خيرٌ فاخشَ شراً مُعقَّبا

وفي جميع هذه الأقوال لمحة من الاعتقاد القديم بأن العالم هو في حكم قوتين هما النور والظلام، وهما يتصرفان به كما يشاءان، فليس للإنسان إلا الصبر وإلا التسليم لقضاء الله وقدره.

أما الصبر فقد قالوا عنه الكثير. وانظر إلى قول محمد بن بشير:

ماذا يكلفك الروحات والدُّجا
البرَّ طوراً وطوراً تركب اللججا
إن الأمورَ إذا انسدت مسالكها
فالصبر يفتح منها كلَّ ما ارتتَجا
لا تيأسنّ وإن طالت مطالبة
إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلِق بذي الصبر أن يحظى بحاجته
ومُدمِن القرع للأبواب أن يلجا

وألطف من ذلك قول أبي العتاهية:

إذا كنتَ في غمّ ولم تر حيلة
فصبراً فإن الهمَّ يُفْرجُ بالصبر
كذاك عيون الماء تكدر مرة
وتصفو مراراً هكذا صفة الدهر

ويقول مؤيد الدين الطغرائي وقد كتب إلى أمين الملك:

فصبراً أمينَ الملك إن عنّ حادث
فعاقبة الصبر الجميل جميل

ولا تيأسنْ من صنع ربك إنني
ضمين بأن اللَّهَ سوف يُديل

ألم ترَ أن الليل بعد ظلامه
علينا لإسفار الصباح دليل

وأنّ الهلال النضو يُقمر بعدما
بدا وهو شخت الجانبين ضئيل

ولا تحسبنّ السيف يقصُر كلما
تعاوره بعد المضاء كلول

ولا تحسبنّ الدوحَ يُقلَع كلما
تمرّ به نفحُ الصبا فيميل

فقد يعطِف الدهرُ الأبيّ عِنانه
فيُشفى غليلُ أو يُبل عليل

ويرتاش مقصوص الجناحين بعدما
تساقط ريش واستطار نسيل

ويستأنف الغصن السليب نضارةً
فيورق ما لم يعتوره ذبول

وللنجم من بعد الرجوع استقامة
وللحظ من بعد الذهاب قفول

وهذه نظرة تفاؤلية، وفيها حسن الظن بالله. وما دمنا في ذكر التاريخ، فلنذكر حادثة في الصبر من حوادث تاريخ الأدب. فقد حبس أبو أيوب الكاتب خمس عشرة سنة حتى ساءت حالته وعيل صبره فكتب إلى بعض إخوانه يشكو له طول حبسه فأجابه صديقه يقول له:

صبراً أبا أيوب صبرَ مُبَرَّح
فإذا عجزتَ عن الخطوب فمَن لها

إنّ الـذي عـقـد الـذي انـعـقـدت لـه
عـقـد المـكـاره فـيـك يمـلك حـلّهـا
صـبـراً فـإن الـصـبرَ يُـعـقـب راحـة
ولـعـلّهـا أن تـنـجـلي ولـعـلهـا

فأجابه أبو أيوب يقول:

صـبَّرتـني ووعـظتني وأنـا لهـا	وستنجـلي بـل لا أقـول لعلها
ويَحُلّها من كان صـاحب عقدهـا	كـرماً بـه إذ كـان يملك حلّهـا

ولم يَلبث أبو أيوب في الحبس إلّا قليـلاً حتى أطلق سراحه. فـأبو أيـوب حسن الـظن بـالله. ومن حسن ظن المرء بـالله قـول عبيـد الله الحارثي:

إصـبرْ عـلى الـدهـر إن أصبـحـت مُـنْـغَمِسـاً
بـالـضـيـق في لجـج تهـوي إلى لجـج
لا تـيـأسـنَّ إذا مـا ضـقـت مـن فـرج
يـأتي بـه الله في الـروحـات والـدُّلَـج
فـما تجـرّع كـأسَ الـصـبر مـعـتـصـم
بـالله إلّا أتـاه الله بـالـفـرج

ويقول أبو إسحاق الثعلبي يدعو الله:

وإني لأُغضي مقلتيَّ عـلى القـذى	وأُلبس ثـوبَ الصبر أبيضَ أبلجا
وإني لأَدعـو الله والأمـرُ ضيـق	عـليّ فـما ينفـك أن يتفـرّجا

ويقول مدرك بن محمد الشيباني:

مـسـتـعـمـل الـصـبر مـقـرون بـه الـفـرج
يـشـقـى ويـصـبر والأبـواب تـرتـتـج
حـتى إذا بـلغـت مـكـنـونَ غـايـتـهـا
جـاءتـك تُـزهـر في ظـلمائـهـا السرج

فاصبر ودم واقرع الباب الذي طلعت
منه المطالع فالمُغْرَى به يَلج
بقدرة اللَّهِ فارْجُ اللَّهَ وارض به
فعن إرادته الغمّاء تنفرج

وخير ما نختم به هذا القول أبيات لأبي علي محمد بن محمد الأنباري:

إذا اشتدّ عسر فارج يسراً فإنه
قضى الله أن العسرَ يتبعه يسرُ
إذا ما ألمت شدة فاصطبر لها
فخير سلاح المرء في الشدة الصبر
وإني لأستحيي من الله أن أُرى
إلى غيره أشكو إذا مسّني الضرُّ
عسى فرج يأتي به الله إنه
له كلّ يوم في خليقته أمر
فكن عند ما يأتي به الدهر حازماً
صبوراً فإن الخير مفتاحه صبر
فكم من هموم بعد طولٍ تكشفت
وآخِرُ معسورِ الأمور له يُسر

* * *

وفي سلافة العصر تشطير لأبيات: إذا اشتملت على اليأس القلوب، من نظم الشيخ أحمد بن الفضل، وهو هذا:

إذا اشتملت على اليأس القلوب — وكادت من تلهّبها تذوب
وعمّ الغمّ واتّسع التجرّي — وضاق بما به الصدر الرحيب

وأوطنت المكاره واطمأنت وفي الأحشاء طنبت الكروب
وأقلعت المسرّة عن ذويها وأرست في أماكنها الخطوب
ولم تَرَ لانكشاف الضرّ وجهاً يلوح ومنك قد يئس الحبيب
وأعيا داءُ فادحة الرزايا ولا أغنى بحيلته الطبيب
أتاك على قنوط منك غوث يُفرّج كل فادحة تذيب
فكم وافاك بعد العسر يسر يمنّ به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات إذا تناهت وفي تصريفها حار اللبيب
وزاد الكرب فيها واستطالت فمقرون بها الفرج القريب

والبيت المنسوب إلي أمية بن أبي الصلت قاله حنيف بن عُمير أدرك الجاهلية والإسلام من أبيات. وقال أعرابي:

لا تضيقن بالأمور فقد تُكشف غماؤها بغير احتيال
ربما تكره النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال
قد يصاب الجبان في آخر الصف وينجو مقارع الأبطال

العشق

تكلم العرب عن الحب ودرجاته وعن العشق ودرجاته، وعن الغرام والهوى والكلف والوجد والصبابة والشوق والمحبة، وحاولوا أن يشرحوا كل درجة من درجات الحب يريدون تمييز كل درجة عن الأخرى ولم يتوفقوا في ذلك واختلط الحب بالهوى والعشق والوجد والغرام وغيرها. غير أنه خرج من المعركة أربعة أنواع من الحب كان لها صفات مميزة، وهي الحب والهوى والعشق والغرام. وخرج من بين هذه الأنواع نوع العشق وانفرد بنفسه عن سائر الأنواع وذلك لأنه مختلف عنها جميعاً. وخصه الأدباء والشعراء بالبحث والذكر والتنويه، في أحاديث أو كتب، كما فعل المسعودي في ذكره العشق خاصة وذكره الأحاديث عنه، أو كما فعل صاحب كتاب مصارع العشاق أو صاحب كتاب تزيين الأسواق أو صاحب كتاب ديوان الصبابة.

جعل صاحب كتاب ديوان الصبابة درجات الحب عشرين درجة وجعل الهوى في الدرجة الأولى والعلاقة في الدرجة الثانية والكلف في الدرجة الثالثة والعشق في الدرجة الرابعة، وقال عن العشق إنه ضرب من الماليخوليا أي أن يعتري الإنسان تغير في الظن والفكر وتحول عن المجرى الطبيعي إلى الفساد، ولم يرد اسم العشق في الشعر العربي القديم ولا في القرآن الكريم، وذكروا أقوالاً لا مُحَصّل لها عن اشتقاق

كلمة العشق. وقالـوا إن العشق لا يعتري الجـاهل أو غليظ الـطبع ولا يعـتري الملوك والـرؤسـاء لانشغـالهم في تـدبـير شؤون الملك أو الأمـور الخطيرة. ويعتري الفارغين من الشغل كأهـل البداوة والأعـراب. وقالـوا إن العشق لا يكـون إلاّ عن أريحية في الـطبع ولـطافة في الشمائل. وقـال الأصمعي: سألت أعرابيـة عن العشق فقالت: جـلّ واللّه عن أن يُرى وخفي عن أبصار الورى فهو في الصدر كامن ككمون النار في الحجر إن قدحته أورى وإن تركته توارى. وهذا التعريف وأمثالـه، وهي كثيرة في كتب الأدب، لا يفهم منهـا شيء. وقالـوا عن العشق إنه فن من فنـون الجنـون، ونسبوه إلى تـأثير الأفـلاك وزعموا أن نجـوم العشق هي زحل وعطارد والزهرة وأن سببه أن تكون الشمس والقمر في بـرج واحد. ثم إن الناس اختلفوا في العشق، هل هو اضطراري أم اختياري، فـالذين قالوا بـأنه اضـطراري طلبوا من الله المغفـرة للعشاق. وقـال الفضل بن عياض: لو رزقني الله دعوة مجابة لدعوت الله أن يغفر للعشـاق، ورَوَوا عن أبي السـائب المخزومي أنـه رُئِي يومـاً متعلقاً بـأستـار الكعبـة وهـو يقـول: اللهم ارحم العـاشقـين وقـوِّ قلوبهم واعـطف عليهم قلوب المعشوقين، فقيل له في ذلك فأنشد:

يـا هـجـر كـفّ عـن الهـوى ودع الهـوى
لـلعـاشـقـين يـطيـب يـا هـجـرُ

مـاذا تـريـد مـن الـذيـن جـفـونهم
قَـرْحـى وحـشـو قـلوبهـم جمـر

مـتـذبـلين مـن الهـوى ألـوانهم
ممـا تجـنّ قـلوبهـم صـفـر

وسـوابـق الـعـبرات فـوق خـدودهـم
دُرر تـفـيض كـأنها قـطر

ويشبه ذلك قول الفتح بن خاقان، وقيل إنه لابن الرومي:

أيها العاشق المعذب صبراً　　فخطايا أهل الهوى مغفوره
زفرة في الهوى أحطّ لذنب　　من غزاة وحجة مبروره

ورَوَوا عن الشيخ شمس الدين بن قيِّم الجوزية قوله إن الكثير من السلف فسَّروا قوله تعالى: ﴿رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ﴾[1] بأنّ منه العشق، والله أعلم.

وتحدثوا عن مصارع العشاق يريدون شرح ما يلاقي العاشق في عشقه من آلام نفسانية بسبب الهجر ومن أرق وسُهد بسبب الأمل الضائع ومن جوع وعطش وقلة اعتناء باللباس مما قد يؤدي بالعاشق إلى نحول الجسم أو قد يؤدي بعقله أن يزوغ أو بحياته أن تزول. والحوادث والحكايات في ذلك كثيرة، بعضها صادق وبعضها مختلق موضوع. أما الصادق منها فهو عشق الشعراء المعروفين وما جرى لهم من شقاء ومحنة في عشقهم هذا، ومن هؤلاء مجنون ليلى وقيس لُبنى وعروة بن حزام وعمرو بن عجلان وذو الرّمة ووضاح اليمن وكثيِّر عزة وجميل بثينة والأحوص وغيرهم. ففي حياة كلّ من هؤلاء صورة عن العشق، والصورة تعطي عن العشق فكرة واضحة، ودراسة حياة كلّ من هؤلاء هي خير وسيلة لمعرفة معنى العشق. ولو حاول محاول أن يجد من شعر هؤلاء قطعة واحدة.تصف حال العاشق وصفاً شافياً لما وجد لأن الشعراء كانوا يتحدثون عن الحب والهوى والغرام والعشق والوجد وغيرها بصوت واحد وبعبارات واحدة، وكانوا يأخذون من أنواع الحب هذه نوعاً ويتحدثون عن ناحية منه ولا يعممون. ولعلّ أقرب وصف لحال العاشق وأكمله قول المؤمَّل بن أُمَيل:

أقاتلتي هندٌ وقتلي محرَّم
أما فيكمُ يا أيها الناس مُسلمُ

---

(1) سورة البقرة الآية ٢٨٥.

يُـظَلِّمـهـا في مـا تـريـد بـعـاشـق
ألاّ حـبّـذا ذاك الـظلوم المـظلَّم
لـقـد زعـمـوا لي أنها نـذرت دمـي
ومـا لي بـحـمـد الله لحـمٌ ولا دم
بـرى حُـبُّـهـا لحـمـى ولم يُـبـقِ لي دمـاً
وإن زعـمـت أني صـحـيـح مُـسَـلَّم
سـتـقـتـل جـلداً بـالـيـاً فـوق أعـظم
ولـيس يـبـالي الـقـتـلَ جـلدٌ وأعـظُم
فـلم أرَ مـثـلَ الحـب صـحَّ قـريـنُـه
ولا مـثـلَ مَـن لم يَـدرِ مـا الحـب يـسْـقَـم
أآذِنـةٌ لي أنـتِ في ذكـر حـاجـة
ألا طـالمـا قـد كـنـت عـنـهـا أجمـجـم
غَـدَرتـم ولم نَـغْـدر وقـلتـم غـدرتـمُ
تـظنّـون أنـا مـنـكـمُ نـتـعـلّم
قـطعـنـا زعـمـتـم والـقـطيـعـة مـنـكـمُ
زعـمـنـا وأنـتـم تـزعُـمـون ونـزعـمُ
فـإن شئـتـمُ كـان اجـتـماعـاً فـقـلتـمُ
وقـلنـا فـإن الـقـول لـلقـول سُـلّم
وإلاّ فـإنـا قـد رضـيـنـا بـحـكـمـكـم
عـلى كـل حـالٍ فـاتـقـوا الله واحـكـمـوا
فـوالله مـا أجـرمـت جـرمـاً عـلمـتـه
فـإن سرّكـم جـرمـي فـهـا أنـا مجـرم
وعـاقـبـتـموني بـالـسـلام عـليـكـم
ولم يـك لي ذنـب سـوى ذاك يُـعـلم

فإن تمنعوا مني السلام فإنني
لَغادٍ على حيطانكم فمسلِّم

واشتهر من بين العشاق المعاميد، عدا المجنون وقيس بن ذريح، عروة بن حزام وصاحبته عفراء وعبد الله بن عجلان النهدي وصاحبته هند وقد ضرب بهما المثل بوفائهما في العشق حتى الموت. وقال فيهما قيس ليلى أو جميل:

فما وَجَدت وجدي بها أم واحد
ولا وَجَد النهديُّ وجدي على هند
ولا وجد العذري عُروة في الهوى
كوجدي ولا من كان قبلي ولا بعدي
على أنَّ ما قد مات صادف راحة
وما لفؤادي من رواح ولا رُشد

وقال أبو وَجزة السعدي:

وفي عُروة العذري إن متُّ أسوة
وعمرو بن عجلان الذي فتنتْ هند
وبي مثل ما ماتا به غير أنني
إلى أجل لم يأتني وقته بعد
هل الحب إلّا عبرة بعد زفرة
وحَرٌّ على الأحشاء ليس به برد
وفيضُ دموع العين بالليل كلّما
بدا علم من أرضكم لم يكن يبدو

ويقول كثيِّر عزة:

وأصبحت مما أحدث الدهر خاشعاً
وكنت لريب الدهر لا أتخشع

وعُـروة لم يَـلق الـذي قـد لـقـيتُـه
بـعـفـراء والـنهـدي مـا أتـفـجّـع

وقـال الأحوص:

لا شـكّ أن الـذي بي سـوف يـقـتـلني
إن كـان أهْـلَكَ حُـبُّ قـبـله أحـدا
أحـبـبـتـهـا فـوتـغـت الـنـاسَ كـلّهـم
يـا رب لا تـشـفـني مـن حـبـهـا أبـدا
لـو قـاس عـروة والـنـهـديّ وجـدهمـا
لـكـان وجـدي بسـعـدى فـوق مـا وجـدا

وقال أيضاً:

إذا جئـت قـالـوا قـد أتى وتهـامـسـوا
كـأن لم يَجـد في مـا مضى أحـدٌ وجـدي
فـعـروة سـنّ الحـبَّ قـبـليَ إذ شـقـى
بـعـفـراء والـنـهـديّ مـات عـلى هـنـد

وعـروة بن حِزام صـاحب عفـراء، أول عـاشق مات بـالهجـر من المخضرمين أو من العذريين ولشدة معاناتـه في العشق ضُرب بـه المثل، كما ذكرنا آنفاً أو كما قال أبو عيينة:

فـما وَجَـد الـنهـديّ إذ مـات حسرة
عـشِـيّـةَ بـانـت مـن حـبـائـله هـنـد
كـوجـدي غـداةَ الـبـيْنِ عـنـد الـتفـاتهـا
وقـد طـار عـنهـا بـين أتـرابهـا الـبرد

وأحب عـروة بن حزام عفـراء من الصغـر وهي ابنـة عمـه ولكن أباها زوّجها من رجل آخـر، وهذا سبب شقـاء عروة وضنـاه، وعرض

نفسه للمداواة على عراف اليمامة وعلى عراف في نجد فلم يشف مما به.
ثم حمل إلى البلقاء ليكون قريباً من عفراء، ولكن قربه منها زاد عشقه لهيباً فخرج إلى أهله وتوفي في وادي القرى. وقيل إن عفراء لما علمت بموته أرادت أن تزور قبره فمنعها زوجها. ثم توفيت ودفنت إلى جانبه، وقيل إنه نبتت من كل قبرٍ شجرة حتى إذا طالتا التفّتا، فكان الناس إذا مروا بالقبرين يتعجبون من تينك الشجرتين ومن التفافهما، وكانت وفاة عروة سنة ٢٨ هجرية، وله في عفراء قصيدته النونية التي مطلعها:

خليليّ من عُليا هِلال بن عامر
بصنعاءَ عوجا اليومَ وانتظراني

وفيها شرح حاله مع عفراء، ويقول:

على كبدي من حب عفراءَ قرحةٌ
وعينان من وجدي بها تَكِفان
تحملت من عفراء ما ليس لي به
ولا للجبال الراسيات يدان
كأنّ قطاة عُلِّقت بجناحها
على كبدي من شدة الخفقان
جعلتُ لعرّاف اليمامة حُكْمَه
وعرافِ نجدٍ إن هما شفياني

وقالوا إن العاشق العَفّ ذنبه مغفور لأن بلاءه طويل وزفراته كثيرة وشقاءه شديد فعذابه في الدنيا شفيع له في الآخرة والله لا يعذب على الشيء مرتين، وتكلموا في ذلك، وقال مسلم بن الوليد:

فوالله لا أدري وإني لسائل
بمكة أهل العلم هل في الهوى وِزْر

وهـل في اكـتحـال الـعـين بـالعـين ريـبـة
إذا مـا الـتقـى الإلـفـان لا بـل بـه أجـر

والمشهور أن رجلاً سأل بعضهم عن العشق فأجابه قائلاً:

سـل المـفـتيَ الـمأمـول هـل في تـزاور
ونـظرة مـشـتـاق الـفـؤاد جُـنـاح

فـقـال مـعـاذ الله أن يُـذْهِـبَ الـتـقـى
تـلاصـق أكـبـاد بهـنَّ جـراح

ودخل ابن سَرجون السُّلَمي على أحد الفقهاء وأنشده:

سـلوا مـالـكَ المفـتي عـن الـلهـو والـغِـنـا
وحـبّ الحـسـان المـعـجـبـات الـفـواركِ

يُـنْـبئْـكـمُ أني مـصـيـب وإنمـا
أُسَـلّي هـمـوم الـنـفس عـني بـذلـكِ

فـهـل في محـب يـكـتـم الحـب والهـوى
أثـام وهـل في ضـمـة المـتـهـالـك

فتبسم وقال: لا إن شاء الله.

وقال المؤمِّل بن أُمَيل:

صـف لـلأحـبـة مـا تـلقـاه مـن سَـهَـرٍ
إن الأحـبـة لا يـدرون مـا الـسـهـر

حُـبّ المـحـبـين في الـدنـيـا عـذابهـم
والله لا عـذّبـتـهـم بـعـدهـا سـقَـر

وسئل الحافظ بن حَجَر:

مــاذا يــقــول إمــام الــعصر في دَنِــف
أضحى قـتـيـل الهـوى مـن أسـهـم المقـل

فــهــل يجـوز لــه إحـيـاء مـهـجـتـه
مـن ثـغـر محـبـوبـه بـالـرشف والـقـبـل

وهــل يجـوز لــه يـومـاً يـعـانـقـه
ويـشـتـفـي الـقـلب في قـول وفي عـمـل

فأجاب الحافظ:

إن صـح دعـواه في إتـلاف مـهـجـتـه
وأن رشـف الـلمـى يـبري مـن الـعـلل

فـليرشـفـنَّ رُضـابَ الـثـغـر محـتـسـبـاً
ولـيـقـطُفَـنَّ بـفـيـه وردة الخـجـل

فـذاك في مـلة الإسـلام أيسر مـن
قـتـل امـرىء مـؤمـن بـالله في الأزل

وسئل القاضي أبو بكر أحمد بن موسى الأنطاكي:

أيُّهــذا القـاضي الكبـيرُ بفضـلٍ صـانك اللَّهُ عن مقام الـدُّنَـات
أيكـون القصـاص في فتـك لحظ من غـزال مــورَّد الـوجنـات
أم يخـاف العذابَ من هـو صبٌّ مُبتـلىً بـالـزفـير والحسرات
ليس إلا العفاف والصوم والنسك لــه زاجـر عـن الـشـبـهـات

فكتب القاضي الجواب:

إن تـكـن عـاشـقـاً فـلـم تـأتِ ذنـبـاً
بـل تَـرَقَّـيْـتَ رفـعـةَ الـدرجـات

ومتى أقضِ بالقصاص على لحظ حبيب أُخـطِـئْ طَـريـقَ القـضـاة

* * *

بشار بن برد يتغزل

بشار بن برد شاعر أعمى من ولادته، وشعره في الدرجة الأولى بين الشعراء المحدثين، وكأنّ العمى لم يكن حائلاً دونه ودون الإجادة، وهذا أمرٌ يستدعي النظر، ولم أجد أحداً بحث في هذا الأمر ولا في أمر أبي العلاء المعري. ولولا أننا نعلم أنه كان أعمى لما وجدنا فرقاً يذكر بين شعره وشعر المبرزين من شعراء زمانه. فقد كان أعمى حقاً، ولكن من أين له تلك الأوصاف الدقيقة، وعلى يد من تتلمذ حتى أتقن اللغة وتلقن الشعر؟ وأبلغ من ذلك أنه كان شاعراً من شعراء الغزل. فكيف كان ذلك؟ هل كان يرى بعين القلب أم بعين الضمير بدلاً من عين النظر، كما يقول الناجم:

لئن كان عن عينيّ أحمد غائباً
فما هو عن عين الضمير بغائب
له صورة في القلب لم يُقصها النوى
ولم تتخطفها أكفُّ النوائب
إذا ساءني منه نزوح دياره
وضاقت عليّ في نواه مذاهبي
عطفتُ على شخصٍ له غير نازح
محلته بين الحشا والترائب

ولكن هـذا لا ينطبق عـلى بشـار لأنـه لم يكن مبصـراً حتى يـرى (أحمدَ) هذا. ولم يكن بشار كالبديع القائل:

لئـن كـنـتَ عـني في الـعِـيـان مُـغَـيَّـبـاً
فـما أنـت عـن سـمـعـي وقـلـبـي بـغـائـب
إذا اشـتـاقـت الـعـيـنـان مـنـكَ بـنـظـرةٍ
تمـثـلتَ لي في الـقـلـب مـن كـل جـانـب

وعلّل عز الدين الإربلي الضرير عِشق الأعمى بقوله:

وكـاعـبٍ قـالـت لأتـرابهـا
يـا قـومُ مـا أعـجـب هـذا الضريـر
هـل تـعـشـق الـعـين مـا لا تـرى
فـقـلتُ والـدمـع بـعـيـني غـزيـر
إن كـان طـرفي لا يـرى شـخـصَـهـا
فـإنها قـد صـورت في الـضـمـير

ولأحمد بن يوسف في صديقٍ له:

تـطاول بـاللقـاء العهـد منـا وطـول العهـد يقـدح في القلوب
أراك وإن نـأيـت بعـين قـلبي كـأنـك نُصبَ عيني من قـريب

وعلى هذا فالإنسان قد يبصر بالقلب كما يبصر بالعين ويقول الخليل بن أحمد:

أن كـنتَ لـست مـعي فـالـقلب مـنـك مـعي
يـراك قـلبـي وإن غُـيـبـت عـن بصري
الـعـين تـبصر مـن تهـوى وتـفـقـده
وبـاطـن الـقـلـب لا يخـلـو مـن الـنـظر

ويقول أبو يعقوب الخريمي وكأن قد عمي:

قالت: أتهزأ بي، غداة لقيتُها ... يا لَلرجال لصبوة العميان
فأجبتها نفسي فداؤك إنما ... أذني وعيني في الهوى سِيان

وعلل مظفّر بن جماعة الضرير عشق الأعمى بقوله:

قالوا عشقتَ وأنت أعمى ... ظبياً كحيلَ الطرفِ ألمى
وحُلاه ما عاينتها ... وتقول قد شغفتك وهما
وخيالُه بك في المنام ... فما أطاف ولا ألَمّا
مِن أين أرسل للفؤاد ... وأنت لم تنظره سهما
ومتى رأيتَ جماله ... حتى كساك هواه سُقما
وبأي جارحةٍ وصلت ... لوصفه نثراً ونظما
فأجبتُ إني موسوي ... العشق إنصاتاً وفهما
أهوى بجارحة السماع ... ولا أرى ذات المسمى

وقال ابن الشِحنة الموصلي:

وإني امرؤ أحببتكم لمكارم ... سمعت بها والأذن كالعين تسمع

ومنه قول بعضهم:

فاتني أن أرى الديار بطرفي ... فلعلي أرى الديار بسمعي

وأخذه القاضي الفاضل فقال:

عللوني عن الشآم بذكرى ... إن قلبي يفيض بالأشواق
مَثّلَتْه الذكرى لسمعي كأني ... أتمشى هناك بالأحداق

وهذا ما قاله بشار عن السماع:

يا قوم أذني لبعضِ الحي عاشقة
والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قــالــوا: بمـن لا تــرى تهــذي؟ فـقـلت لهـم
الأذن كــالــعـين تــوفي الـقــلب مـا كــانــا

ويكرّر بشار قوله هذا حيث يقول:

قــالـت عَـقِـيــل بـنُ كـعـب إذ تــعـلّقــهــا
قــلبي فــأضـحـى بــه مــن حـبـهــا أثــر
أنّى، ولم تــرهــا تهــذي؛ فــقــلت لهــم
إن الـــفـــؤادَ يــرى مــا لا يــرى الــبصر

فالأذن تقوم مقام العين وكـذلك القلب أو الفؤاد يقـوم مقام العـين،

ويكرر بشار رأيه هذا حيث يقول:

يــزهّــدني في حــب عــبـدة مــعشر
قــلوبهــمُ فــيــهــا مخــالــفــة قــلبــي
فــقــلت: دعــوا قــلبي وما اختــار وارتضى
فــبــالـقــلب لا بــالــعـين يــبصر ذو الــلُّبّ

والغريب أن أبا تمام يصدق قـول بشار. فقـد استمع يـوماً لمغنيـة تغني بالفارسية فأعجبه غناؤها وأحبه فقال من جملة ما قال:

ولم أفـهـم مـعــانـيـهــا ولـكـن شجت قلبي فلم أحمِـل شجـاهـا
فـكـنـت كــأنـي أعـمـى مـعـنىّ يحـب الغــانـيـات ولا يــراهــا

وعن القلب أو الفؤاد بـأنه يقـوم مقام العـين يقول ابن عبـاس لمّا كُفّ بصره:

إن يــأخــذ الله مــن عــيـنيّ نــورَهمــا
فــفــي لــســاني وقــلبــي مـنهـما نــور
قــلبــي ذكــي وعــقــلي غــير ذي دَخــلٍ
وفي فــمـي صــارم كــالــسـيـف مـشـهـور

أمّا لسان بشار فلا شك في صرامته وحدّته، وأمّا ذكاؤه فقد أشار إليه بقوله:

إذا وُلِد المولود أعمى وجدتَه
وجَدِّكَ أهدى من بصير وأحولا

عَمِيتُ جنيناً والذكاء من العمى
فجئتُ عجيبَ الظن للعلم مَوْئلا

وغاض ضياء العين للقلب فاغتدى
بقلب إذا ما ضيّع الناس حصّلا

وشعرُ كنوز الأرض لاءمتُ بينه
بقولٍ إذا ما أحزن الشعر أسهلا

ومثله ما عُزِي إلى الحُصْري القيرواني وكان قد عمي:

وقالوا قد عميتَ فقلت كلّا فإني اليومَ أبصر من بصير
سوادُ العين زار سوادَ قلبي ليجتمعا على فهم الأمور

والغريب أن يشتهر بشار بالغزل على ما كان عليه من العمى، ولم يشتهر شاعر غيرُه مِثلَه بذلك. وقال شعراً كثيراً غزلياً في امرأةٍ اسمُها عبدة كان يشبّب بها. وكان أولُ عهده بها ما رواه الأصمعي قال: كان لبشار مجلس يجلس فيه يقال له البَرَدان. فبينا هو في مجلسه ذات يوم وكان النساء يحضرنه إذ سمع كلام امرأة يقال لها عبدة، فدعا غلامه وقال له: إني قد علقت امرأة فإذا تكلمت فانظر من هي واعرفها فإذا انقضى المجلس وانصرف أهله فاتبعها وكلّمها وأُعلِمها أني لها محب.

وأنشد أبياتاً فيها وقال للغلام أن ينشدها إياها وهي:

يا قوم أُذني لبعض الحي عاشقة
والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم

الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

ما كنت أول مشغوف بجارية

يَلقى بلُقيانها رَوْحاً وريحانا

فأبلغها الغلام الأبيات فهشت لها وكانت تزوره مع نسوة يصحبنها فيأكلن عنده ويشربن وينصرفن بعد أن يحدثها وينشدها ولا تطمعه في نفسها وقال فيها أشعاراً منها:

قالت عقيل بن كعب إذ تعلقها...

وقد مرّ هذا معنا ومنها:

يزهدني في حب عبدةُ معشر

....

ومنها:

يا وَيْحَ نفسي أراها كلما انبعثت

ألقى عليها صباباتِ الكرى القَدَر

بَليتُ والشوق أبلاني تذكّره

من غادةٍ بيتُها دانٍ ومُهتجَر

هيفاء مقبلةٌ عجزاءُ مُدبرة

لم تُجفَ طولاً ولا أزرى بها القصر

غرّاء كالقمر المشهور حين بدت

لا بل بدا مثلُها حين استوى القمر

لّما رأيتُ الهوى يَبري بمُديته

لحمي وخَلأني الزُّوّار والسمر

أصبحت كالحائم الحرّان مُجْتَنَباً

لم يَقض وِرداً ولا يُرْجَى له صَدَرُ

وهذه الأبيات بقية قوله: قالت عقيل بن كعب إذ تعلقها...

وفيها أوصاف يعجز عنها البصير فكيف بالضرير. وقال في عبدة:

يــا قــلب مــالي أراك لا تَـقِـرُ
إيــاكَ أعــني وعــنـدك الخَـبَرُ
أضِـعـتَ بـين الألى مـضـوا حُـرَقـاً
أم ضـاع مـا اسـتـودعـوك إذ بَـكَـروا
فـقـال: بـعض الحديـث يـشـغـفـني
والـقـلب راءٍ مـا لا يـرى الـبصر

ويحكى أيضاً أن امرأة أتت بشاراً ذات يوم وقالت: يا أبا معاذ عَبدة تقرئك السلام وتقول لك: قد اشتدّ شوقنا إليك ولم نرك منذ أيام. فقال بشار: والله كان ذاك عن غير مَقلية. ثم دعا راويته وقال له: خذ رُقعة واكتب فيها ما أقول لك، وأملى عليه:

عبـدَ إني إلـيـك بـالأشـواق لِتَـلاقٍ وكيف لي بـالتـلاقي
أنـا والله اشتهـي سِحـرَ عـيـنـيـكِ وأخشى مصـارع العشـاق
وأهـاب الحـرسيّ محتَسِبَ الـجنـد يـلُفُ الـبريءَ بـالـفُسّـاق

وله في عبدة، وهو مما يُغنّى به:

لعبـدةَ دارٌ مـا تكلمنـا الـدار تلوح مغـانيهـا كـما لاح أسطار
أُسـائـل أحجـاراً ونؤيـاً مهـدَّمـا وكيف يجيب القولَ نؤي وأحجار
ومـا كلمتني دارُهـا إذ سـألتهـا وفي كبدي كالنِّفط شُبَّت بـه النار
وعنـد مغـاني دارهـا لـو تكلّمت لمكتئبٍ بـادي الصبابـة أخبـار

وفي الأغاني أن بشاراً كان يهوى امرأة من البصرة فراسلها يسألها أن تزوره فوعدته بذلك ليلة ثم أخلفته، وجعل ينتظرها تلك الليلة بطولها حتى أصبح ولم تأته، فأرسل إليها يعاتبها فاعتذرت بمرض أصابها، فكتب إليها بهذه الأبيات:

يـا لـيلتي تـزدادُ نـكـرا　　مِن حب مَن أحببتُ بِكـرا
حـوراءُ إن نـظرت إلـيـــك سقتك بالعينين خمرا
وكـأنّ رجـعَ حـديثهـا　　قِطعُ الرياض كُسين زَهـرا
وكـأن تحـت لـسـانهـا　　هـاروتَ ينفث فيه سحـرا
وتخـال مـا جمعت عـليـه ثيـابها ذهبـاً وعِـطرا
وكـأنها بـرد الشراب صـفـا ووافـق منـك فِـطرا
جـنـيـة　　إنـسـيـة　　أو بـين ذاك أجـل أمـرا
وكـفـاكَ أني لم أُحِط　　بشكـاة من أحببت خُبرا
إلّا مـقـالـةَ زائـر　　نـثرت لي الأحـزان نـثرا

ولما تزوّجت عبدة وخرج بهـا زوجها إلى عُسْفان من البصرة قـال بشار:

هـوى صـاحـبي ريـح الـشـمال إذا جـرت
وأشـفَـى لـقـلب أن تهـب جـنـوب
ومـا ذاك إلّا أنها حـين تـنـتـهـي
تـنـاهـي وفـيهـا مـن عـبـيـدة طـيـب
عـذيـري مـن الـعـذال إذ يـعـذرونـني
سَـفـاهـاً ومـا في الـعـاذلـين لـبـيـب
يـقـولـون لـو عـزّيت قـلبَـك لارعـوى
فـقـلت وهـل لـلعـاشـقـين قـلوب
إذا نـطق الـقـومُ الجـلوسُ فـإنـني
مُـكِـبّ كـأني في الجـمـيـع غـريـب

ولبشار في الوصف قوله يتغزل:

أيهـا الساقيـات صُبّـا شرابي　　واسقيـاني من ريق بيضـاءَ رُودِ
إن دائي الصـدى وإن شفـائي　　شربـة من رضـاب ثغـرٍ بَـرُود

عندها الصبرُ عن لِقائي وعندي زفراتٌ يأكلن قلْبَ الجليد
ولها مبسم كغُرّ الأقاحي وحديث كالوشي وشيِ البرود
نزلت في السواد من حبة القلب ونالت زيادةَ المستزيد
ثم قالت: نلقاكَ بعد ليالٍ والليالي يُبلين كلّ جديد
لا أُبالي من ضَنّ عني بوصل إن قضى الله منكِ لي يومَ جود

ومن الذي علّم بشاراً كيف تكون الأقاحي وكيف يكون وشي البرود؟

ولبشار أيضاً:

كأنها يوم راحت في محاسنها فارتج أسفلها واهتزّ أعلاها
حوارء جاءت من الفردوس مُقبلةً فالشمس طلعتها والمسك رياها

ولا يصعب هذا الوصف على أعمى.

الوفاء عند النساء

اعتاد العرب أن يصموا النساء بعدم الوفاء وبعدم الحفاظ على الودّ فهن في رأيهم لا وفاء لهن ولا عهد، وذكروا هذه الوصمة على لسان عدد من شعرائهم، كقول الحارث بن عمرو آكل المرار:

كلّ أنثى وإن بدا لك منها آية الحب حبّها خَيتعور

إنّ من غرّه النساء بودّ بعد هند لجاهل مغرور

وللحارث حكاية مع امرأته هند لا مجال لذكرها والخيتعور هو الذي له ظاهر وليس له حقيقة. وكقول كثيّر عزة:

تمتع بها ما ساعفتك ولا يكن

عليكَ شجًى في الصدر حين تبين

وإن هي أعطتك الّليانَ فإنها

لِآخر من خُلانها ستلين

وإن حلفت لا ينقض النأيُ عهدَها

فليس لمخضوب البنان يمين

أو كقول طُفيل الغنوي عن النساء عامة:

إن النساء كأشجار نبتن لنا

منهنّ مُرّ وبعض المرّ مأكول

إن النساء ولو صُوّرن من ذهب
فيهنّ من هفوات الجهل تخبيل
إن النساء متى يُنهين عن خلق
فإنه واجب لا بُدّ مفعول
إذا وَعَدنك مِن شرّ وفينَ به
وإن وعدنك من خير فممطول

وقالوا عن النساء إنهن لا يقمن وزناً إلّا للمال وللشباب، كقول عَبْدة بن الطبيب:

فإن تسألوني بالنساء فإنني
عليم بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله
فليس له في ودهنّ نصيب
يُرِدْنَ ثراءَ المال حيث وَجَدنه
وشرخ الشباب عندهن عجيب

وذكر العرب أمثلة على النساء اللواتي لا وفاء ولا عهدَ لهن، كما ذكرو، أيضاً، أمثلة على النساء الوفيات الموفيات بالعهد القائمات على الود، ومنهن فتيات ومنهن متزوجات ومنهن شريفات ومنهن غير شريفات.

كان للنعمان بن بشير من أولاده ثلاث بنات لهن ذكر معروف: إحداهن حُميدة والثانية عَمرة والثالثة هند. أما حميدة فتزوجت أربع مرات، وعمرة تزوجت المختار بن عبد الله الثقفي، وهند تزوجت الحجاج ثم عبد الملك بن مروان. ولهن أخت رابعة يقال لها أم أبان. ولكل منهن حكاية مع زوجها. وغايتنا هنا في عَمْرة، فإن زوجها المختار بن عبيد الله الثقفي قام بالدعوة إلى بني هاشم في الكوفة وعصى

عبد الله بن الزبير فقاتله مصعب بن الـزبير وقتله. ثم بعث مصعب إلى امـرأتي المختار وهمـا أم ثابت بنت سَمُـرة وعمـرة بنت النعـمان بن بشـير وطلب إليهما أن تتبرءا من المختار فقالتا: كيف نتبرأ من رجـل يقول ربي الله، وكان صائمَ نهاره قـائمَ ليله. فكتب مصعب إلى أخيه يستشـيره في أمرهما، فأشار عليه عبد الله بأن يعرضهما على السيف فإن رجعتاعـما هما عليه وتبرأتا منه وإلاّ فاقتلهما، فعـرضهما عـلى السيف فرجعت أم ثـابت وتبرأت من زوجها ولعنته وشهدت بأنه كان كافـراً، أما عمـرة فأبت أن تتبرأ منه ورأت أن القتل في هذا السبيل شهادة، وقالت: شهادة أُرزقهـا وأتركها؟ كلاّ، إنها موتةٌ ثم الجنة. وقـالت عن زوجها: رحمـة الله عليه إنه كان عبداً من عباده الصالحين. فبعث بها مصعب إلى السجن، وعاد إلى استشارة أخيه عبد الله في أمرهـا. فأشـار عليه بـأن يخرجهـا ويقتلها فأخرجها إلى مكان بين الحيرة والكوفة ووكـل بقتلها رجـلاً اسمه مـطر، فكفنت وهي حيـة وأنزلت حفـرة هناك ثم ضربهـا مطر بـالسيف ثلاث ضربات فوقعت تتشحط في دمها وجعلت تنادي: يـا أبتاه يـا أهلاه، ثم ماتت. واستفظع الناس مقتل عمـرة، وكان النبي ﷺ قـد نهى عن قتل النساء. ومن الذين استفظعوا هذا القتل عمر بن أبي ربيعة حين قال:

إن من أعجب العجـائب عنـدي قتـلَ بيضـاءَ حُـرَّة عُـطبـول
قُتلت هكـذا عـلى غـير جـرم إنَّ لِلَّـه دَرَّهـا مـن قـتـيـل
كُتِب الـقتـلُ والـقتـال عـلينـا وعـلى الـغانـيات جَرّ الـذيـول

ومن الذين استفظعـوه أيضاً سعيـد بن عبد الـرحمن بن حسان بن ثابت حين قال في قصيدة:

ألم تـعـجـب الأقـوام مـن قـتـل حـرةٍ
مـن المـخـلِصـات الـديـن محـمـودة الأدبْ

مـن الـغـافـلات المـؤمـنـات بـريـئـةٍ
من الـزور والـبـهـتـان والـشـك والـرِّيَـبْ
أتـاني بـأنّ المـلحـديـن تـوافـقـوا
عـلى قـتـلهـا لا جُـنِّـبـوا الـقـتـلَ والـسـلَبْ
عـلينـا كـتـابُ الـقـتـل والـبـأس واجـب
وهُـنّ الـعـفـاف في الحـجـال وفي الحُـجُـبْ
عَـجِـبْـتُ لهـا إذ كُـفّـنـت وهـي حـيّـة
ألاّ إن هـذا الخـطب مـن أعـجـب الـعـجـب

وهذا نوع من الوفاء، وهو أجلّ أنواعه. ومن الـوفاء عنـد النساء أن تعرض المرأة نفسها للقتل دفـاعاً عن زوجهـا، كما جـرى لنائلة بنت الفُرافصة زوجة عثمان بن عفـان رضي الله عنه في يـوم الدار. فـإن قتلة عثمان دخلوا داره من الخوخة ومن على السور بالحبـال وبيدهم السيـوف وهجمـوا على عثمان فألقت نـائلة نفسها عـلى عثمان تقيـه من السيـوف فضربها أحدهم بسيفه فأصـابها في عجيـزتهـا ثم أهوى رجل إلى عثـمان بالسيف فاتقته بيدها فقطع السيف إصبعين من يدها،وخلصوا إلى عثمان فقتلوه وخرجوا. وكتبت كتاباً إلى معاوية بن أبي سفيان تذكر له ما جرى بعثـمان وبعثت إليه بقميصـه مع النعـمان بن بشير، وكـان هذا الكتـاب السبب في واقعـة صفين. ثم بعث إليهـا معاويـة بن أبي سفيان يخطبها فنزعت ثناياها العليا حتى لا تكون صـالحة للزواج بعـد عثمان رضي الله عنه.

وهذا شبيه بمـا جرى لامـرأة هدبـة بن الخشرم واسمها أم بـوزع حـين جدعت أنفهـا حتى تشوّه وجههـا فـلا تصلحَ لـزوج آخـر بعـده. وكانوا يقيسون وفاء المرأة بامتنـاعها عن الـزواج برجـل آخر بعـد موت زوجها. ويروى أن مالك بن عمـرو الغساني تـزوج ابنة عمّ للنعـمان بن

بشير الأنصاري فأحب كلّ واحدٍ منهما صاحبه، وكان مالك هذا شجاعاً بطلاً مقداماً فأخذت عليه عهداً أن لا يباشر حرباً خوفاً عليه من الموت. واتفق انه اعتلق بحرب مع بعض الأعداء فأصابته طعنة مات منها، وقال وهو يجود بنفسه، يذكر زوجته:

ألا ليت شعري عن غزالٍ تركته
إذا ما أتته ميتتي كيف يصنع
أيلبَس أثوابَ الحداد تفجّعاً
على مالكٍ أم فيه للبعل مطمع
فلو أنني كنتُ المؤخَّر بعده
لما بَرِحت نفسي عليه تقطع

فلما أتاها خبر مقتله استمسك لسانها حولاً واستسلمت للحزن لا تُسَلّى ولا تُعَزّى. فقال أهلها: لو زوجتموها غيرَه لعلّها تسلو وتُفِيق. فحملوها على الزواج برجل من أبناء الملوك، فساق إليها هديةً عظيمة القدر. فلما كان ليلة البناء بها أخذت بعضادتي الباب وقالت وخطيبها يسمع:

يقول رجال زوجوها لعلّها
تُفِيق وترضى بعده بحليل
فأضمرتُ في النفس التي ليس بعده
رجاءٌ لها والصدق أفضل قيل
أبعد ابن عمرو سيد القوم مالك
أُزَفّ إلى زوج بعسب كليل
وخبَّرني أصحابه أن مالكاً
خفيفٌ على العلات غير ثقيل

وخــبرني أصــحــابــه أن مــالــكــاً
ضروبٌ بمـاضي الـشـفـرتـين صـقـيـل
وخــبرني أصــحــابــه أن مــالــكــاً
جـواد بمـا في الـرحـل غـير بـخـيـل
وخــبرني أصــحــابــه أن مــالــكــاً
ثـوى وتـنـادى صـحـبـه بـرحـيـل
فـما كـان يشريـني خـلـيـلي بـخُـلّة
ومـا كـنـت أشري مـالـكـاً بـخـلـيـل

فلما سمع خطيبها قولها هذا علم أنها لن تتبدل بزوجها زوجاً آخر فتركها.

* * *

وتـزوج المعتمـد بن عبـاد صـاحب إشبيليـة في الأنـدلس زوجتـه الرميكية وعاشت معه عـلى أحسن ما يكـون العيش، ولم تفارقـه لمّا أُسِر وأخِذ إلى أغمات في المنفى ومات هو هنـاك وماتت هي أيضـاً. ودُفِن في قبر بجوارها.

* * *

والجواري لا تقل في كثير من الأحيان عن الزوجات الحرائر وفـاءً وإخلاصاً،. ومثال ذلك دنانير جارية يحيى بن خـالد الـبرمكي فإنها آلت أن لا تغني بعد سيدها. ومثلها جارية الشاطبي التي لم تنقطع عن الحزن والبكاء عليه حتى ماتت. واشتهر من الجواري في الوفاء جارية الفتـح بن خاقان وجارية المتوكل على الله. فإنـه لما قتل الفتح بن خاقان مع المتوكل حـزنت عليه جـاريتـه ورثتـه ولم تـزل تبكي وتنـوح عليـه حتى مـاتت. وجارية المتوكل واسمها محبوبة كانت أثـيرة عنده، فلما قُتـل ضمت هي وكثير من الوصائف إلى بغا الكبـير وكـان هـذا قد دبّـر مقتل المتـوكل.

فدخلت عليه يوماً للمنادمة، وأمر بالقينات والجواري فدخلن عليه في الحليّ والحلل. وأقبلت محبوبة حاسرة ليس عليها من الحلي والحلل شيء وجلست مُطرقة منكّسة، فقال لها وَصِيف وكان من زعماء الأتراك المتحكمين بالخلافة أن تغني. فاعتذرت، فأقسم عليها ووضع العود في حجرها، ولمّا لم تجد بداً من الغناء تركت العود وغنت غناءً مرتجلاً تقول:

أيّ عيشٍ يلذّ لي	لا أرى فيه جعفرا
ملِك قد رأيتُه	في نجيع مُعَفّرا
كلّ من كان ذا خبال	وسقم فقد برا
غيرَ محبوبةَ التي	لو ترى الموتَ يُشترى
لاشترته بما حوته	يداها لِتُقبرا

فغضب عليها وصيف وسجنها وماتت في السجن.

* * *

والأعرابيات موصوفات بالوفاء في رأي الكثيرين، وذكروا عن أعرابية فقدت زوجها وجاءها رجل عرض عليها الزواج وألان لها الكلام فأبت، ثم أنشدت تقول:

كنا كغصنين في أصلٍ غذاؤهما	ماء الجداول في روضات جنات
فاجتث خيرَهما من جنب صاحبه	دهرٌ يكُرّ بترحات وفَرحات
وكان عاهَدني إن خانني زمن	أن لا يُضاجِع أنثى بعد مثواتي
وكنتُ عاهدتُه إن خانه زمن	أن لا أَبوءَ ببعل طول محياتي
فلم نزل هكذا والوصل شيمتنا	حتى تُوفيّ قريباً مذ سُنَيات
فاقبض عِنانك عمّن ليس يردعه	عن الوفاء خِلابُ بالتحيات

فعلم أنها لن تتزوج لكي تفي بعهدها.

* * *

واشتهر من بين الوافيات لأزواجهن أم هانىء بنت أبي طالب تزوجها هُبيرة بن وهب ثم هرب من مكة لما فتحها النبي ﷺ إلى اليمن. وخطبها النبي فاعتذرت ولم تتزوج. ومنهن نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان بن عفان رضي الله عنه التي ذكرناها فقد خطبها معاوية بن أبي سفيان وألح عليها وقلعت ثنيتيها وبعثت بهما إليه فكفّ عنها ولم تتزوج. ومنهن الرّباب بنت امرىء القيس بن عدي بن جابر، تزوجها الحسين رضي الله عنه، فلما قتل رفضت أن تتزوج بعده. ومنهن زوجة هدبة بن الخشرم، التي ذكرناها أيضاً، فقد جدعت أنفها حتى لا تتزوج بعده.

الديار وذكرها

الذي درس الشعر العربي ولا سيما الجاهلي منه لا بد أن يجلب انتباهه ناحية مهمة من نواحيه وهو البكاء على الديار والحنين إليها. ولعلّ ذلك لأن العرب عاشوا زمناً طويلاً عيشة الرعي والبداوة فكانوا لا يلبثون إذا حلوا بأرض أن ينتقلوا منها ويرتحلوا عنها، أو كانوا إذا ألفوا أرضاً أُجبروا على تركها بعوادي الطبيعة أو بعوادي الإنسان. والديار عندهم هي ديار الأهل وديار الأحباب وهي الحِمى والحيّ والرَّبْع، ومنها الطلول والرسوم والآثار والدِّمَن. ولشدة حب العرب لديارهم خاطبوها مخاطبة الإنسان للإنسان وبكوا عليها وناحوا على الأطلال والرسوم وتذكروا عهود الصبا في عرصاتها وأيام الأحبة بين آثارها، فاشتاقوا إليها. ويقال إن ابن حِذام مِن أول من بكى الديار بدليل قول امرىء القيس:

عوجا على الطلل المُحيل لعلّنا
نبكي الديار كما بكى ابنُ حِذامِ

وامرؤ القيس لم يقصّر عنه في ذلك، فهو القائل:

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدَّخول فَحَوْمل

وله أيضاً:

قفـا نبـكِ مـن ذكـرى حبيـب وعـرفـان
ورسـمٍ عـفـت آثـاره مـنـذ أزمـان

والنابغة يقول:

يـا دارَ ميـةَ بـالعليـاء فـالسنـد   أقوت وطال عليهـا سالف الأمـد

ويقول زهير عن إقواء المنازل وخلوّها من الأهل وقدمها:

لمـن الـديـارُ بقُـنّـة الحَـجْـرِ   أقـوَيْن من حِجَـجٍ ومن شهـر

ويقول:

أَمِن آلِ ليـلى عـرفتَ الـطلولا   بـذي حُـرُضٍ مـا ثـلاثٍ مُثـولا

ويقول:

قـف بـالـديـار الـتي لم يَـعْـفُـهـا القِـدَمُ
بـلى وغـيّرهـا الأرواح والـدّيَـم

وطرفة يقول:

لخـولـة أطـلال بـبُرقـة ثَـهْـمَـدِ
تـلوح كـبـاقـي الـوشـم في ظـاهـر الـيـد

ولطرفة أيضاً:

أَشَجـاك الـربـع أم قِـدَمُـهْ   أم رمـاد دارس حُمَـمُـهْ

ولعبيد بن الأبرص:

لمن الـدارُ أقفـرت بـالجنـاب   غـيرَ نُؤي ودمنـةٍ كـالكتـاب

وله أيضاً:

لمن الـديـارُ بصاحـةٍ فَحَـرُوسِ   دَرست من الإقـفـار أيَّ دُروس

وله أيضاً:

لمن الـديـار بـبُرقـة الـرَّوحـان درست وغـيّرهـا صروف زمـان

وللأعشى قوله:

من ديـارٍ بالهَضْبِ هَضْبِ القَلِيب فاض ماءُ الشؤون فيضَ الغُروب

وله أيضاً:

شـاقـتـكَ مِن قِتْلَةَ أطـلالُهـا بـالشَّطّ فـالـوِتـر إلى حـاجـر

وله أيضاً:

لميثـاءَ دارٌ قـد تـعفّـت طلولُهـا عَفَتها نَضِيضات الصَّبـا فمسيلها

وكل هذه الأشعار تتحدث عن الطلول ودروس الديار وتعفي آثارها وإقوائها وخلوها. والقول في ذلك كثير، ثم أخذ الشعراء يـربطون بـين الديار وأهلها وبين الحبيبة ومنزلها أو دارها، ثم تحـولوا من الكـلام على إقفار الدار إلى الكلام على إقفار الدار من الحبيب ثم على رحيل الحبيب من منـزله، فـالمنزل مقفِـر وإن كان عـلى حالـه. خذ مثـلاً قول امـرىء القيس:

سـما لـك شـوق بـعـد مـا كـان أقصرا
وحـلّت سـليـمـى بـطنَ قَـوّ فَـعَـرْعَـرا

كِـنـانـيـة بـانـت وفي الـصـدر ودّهـا
مجـاورةٌ غـسّـانَ والحـيَّ يَـعْـمَـرا

بـعـيـنيّ ظُـعـنُ الحـيّ لمـا تحـمّـلوا
لـدى جـانـب الأفـلاج من جنب تَـيْـعَـرَى

ولامرىء القيس أيضاً:

عـوجـا عـلى الـطلل المُـحـيـل لأنـنـا
نـبـكـي الـديـارَ كـما بكـى ابـن خِـذام

أوَ مـا تـرى أظـعـانَهن بـواكـراً
كـالـنـخْـلِ مـن شَـوكـانَ حـينَ صِرام
حـوراً تـعـلّل بـالـعـبـير جُـلودُهـا
بـيضَ الـوجـوه نـواعـم الأجـسـام
فـظللتُ في دِمـن الـدِيـار كـأنـني
نَـشـوانُ بَـاكـرَه صَـبُـوحُ مُـدام
ويقول النابغة:

يـا دارَ مـيـة في الـعـلـيـاء، فـالـسـنـد
أقـوت وطـال عـلـيـهـا سـالـف الأمـد
أمـسـت خـلاءً وأمسى أهـلـهـا احـتـمـلوا
أخـنى عـلـيـهـا الـذي أخـنى عـلى لـبـد

ولـزهير وطـرفة وغـيرهما أمثلة من ذلـك، وهم يربـطون بين خلو المنزل ورحيل الحبيب.

ولهم أقوال كثيرة في الرحيل والظعينة والفِراق وجميع هـذه الأقوال مرتبطة بخلو المنازل وإقفارها.

وعلى العموم فـترك الديـار في ذات حدته مـوضـوع من أجزل الموضوعات في الشعر العربي، خذ مثلاً قول شُعبة بن غَريض من أوائل الإسلاميين:

يـا دارَ سُـعـدى بـأقصى تـلعـة النَّـعَـم
حُـيِّـيـتِ داراً عـلى الإقـواء والـقِـدَم
ومـا بجـزْعـك إلاّ الـوحش سـاكـنـةً
وهـامِـد مِـن رمـاد الـقـدر والحُـمَـم
عُـجْنـا فـما كـلمتـنـا الـدار إذ سُئِـلت
ومـا بهـا عـن جَـواب خلتُ مـن صمـم

والحنين إلى الوطن والشوق إلى الديار أبلغ. خذ مثلاً قول الأعرابية تحن إلى نجد، وبعضهم ينسب القول إلى الصمة القشيري:

أَلَا مَن لعين لا ترى قُلل الحمى
ولا جبلَ الآثال إلا استهلت
ألا قاتل الله الحمَى من محلة
وقاتل دنيانا بها كيف ولت
غنينا زماناً باللوى ثم أصبحت
عراص الهوى من أهلها قد تخلت
فما وجد أعرابية قذفت بها
صروف النوى من حيث لم تك ظنت
تمنت أحاليب الرِعاء وخيمة
بنجد فلم يُقدر لها ما تمنت
إذا ذكرت نجداً وطيبَ ترابه
وبردَ الحصى من نحو نجدٍ أرنت
لها أَنَّةٌ بعد العشاء وَأَنَّةٌ سُحَيْراً ولولا أَنَّتاها لَجُنَّتِ

ومن هذا القبيل قول الوليد بن عُبَيد الطائي:

ذاك وادي الأراك فاحبِس قليلاً مُقْصِراً من صبابة أو مطيلا
قِف مشوقاً أو مُسْعداً أو حزيناً أو مُعيناً أو عاذراً أو عذولا
إن بين الكثيب فالجَزع فالآرام ربعاً لآلِ هند مَحيلا
أَبْلت الريحُ والروائح والأيام منه معالماً وطلولا
وخلافُ الجميل قولك للذاكر عهد الأحباب صبراً جميلا
لا تلمه على مواصلة الدمع ولؤمٌ لومُ الخليل الخليلا
لم يكن يومنا طويلاً بنعمان ولكن كان البكاء طويلا

* * *

فالحنين إلى الوطن يخلق في النفس صلة عاطفية شديدة تصل بين المشتاق والمشوق، ويجعل بين الدار وأهلها رابطة أشبه ما تكون برابطة الأب بابنه أو الابن بأبيه. وما أدل على ذلك من قول الشريف الرضي:

ولقد وقفت على ربوعهمُ وطلولها بيد البِلى نَهْبُ
فبكيت حتى ضجّ من لغبٍ نِضوى ولجّ بعذليَ الركب
وتلفتت عيني فمذ خفِيت عني الطلول تلفّت القلب

فما معنى قوله: تلفت القلب؟ هذه العلاقة بين القلب والديار هي قوام حديثنا الآن.

في الشعر الجاهلي أقوال في ذلك ولكن الشعر الإسلامي أرق. لنأخذ مثلاً في هذا المعنى قول الحارث بن خالد المخزومي:

إني وما نحروا غداة مِنى عند الجمار تؤودها العُقْلُ
لو بُدّلت أعلامُ ساكنها سُفلاً وأصبح سُفلها يعلو
فيكاد يعرفها الخبير بها فيردّه الإقواء والمحل
لعرفتُ مغناها بما احتملت مني الضلوع لأهلها قبل

فذكرى أهل الدار تعين على معرفة الدار ولو خفيت معالمها. والغريب أن ينطق بذلك امرؤ القيس في قوله:

لمن طللٌ دارس آيُه أضرَّ به سالفُ الأحرُس
تنكره العين من جانب ويعرفه شغف الأنفس

وللأبيوردي الشاعر من قبيل ذلك قوله:

نزلنا بنعمانِ الأراك وللندى
سقيط به ابتلت علينا المطارف
فبتّ أعاني الوجد والركب نوّم
وقد أخذت مني السُّرى والتنائف

وأذكر خوداً إن دعاني إلى الهوى
هواها أجابته الدموع الذوارف
لها في مغاني ذلك الشعب منزل
لئن أنكرته العين فالقلب عارف

وللشاعر طُريح الثقفي ما يشبه قول امرىء القيس:

تستخبر الدمنَ القفارَ ولم تكن لِتردَّ أخباراً على مستخبر
فظلِلتَ تحكُم بين قلبٍ عارف مَغنى أحبته وقلبٍ منكِر

ومثل ذلك قول الحسن بن وهب:

أبليتَ جسمي من بعد جدّته فما تكاد العيون تُبصِره
كأنه رسم منزل خلَق تعرفه العين ثم تنكره

ورأيت هذه الأبيات لقائل مجهول:

هي الدار التي تعرف لِمْ لا تعرف الدارا
ترى منها لأحبابك أعلَاماً وآثارا
فيبدي القلب عرفاناً وتبدي العين إنكارا

ومن هنا تكلم الشعراء عن عين القلب وعين الضمير وعين النظر وقالوا عن الأعمى إنه يرى بعين الضمير، ولبشار الأعمى أقوال في ذلك. ويقول الشبلي:

على بُعدك ما يصبر مَنْ عادَتُهُ القرب
ولا يقوى على هجرك من تيّمه الحب
فإن لم ترك العين فقد يُبصرك القلب

وتكلم الشعراء عن ذكر الديار، ولكن القليل منهم تكلم عن الذكر الذي عناه الشبلي أو عناه ابن المعتز حين قال عن معلمه ثعلب:

مَا وجد صاد بالحبال موثقِ بماء مزن بارد مصفَّقِ

بـالـريـح لم يكـدُر ولم يُـرَنَّقِ   جادت به أخلاف دَجنُ مُطبقِ
بصخـرةٍ إن تـرَ شمســاً تـبرُقِ   مـاد عليهـا كـالـزجـاج الأزرقِ
صريحُ غَيثٍ خـالصٍ لم يُمـذق   وصَـيْرَفـيًّـا نـاقـداً للمنـطق
إن قيـل هـذا بَهْـرج لم ينفق   إنـا عـلى البعـاد والتـفـرق

بالذكر إن لم نلتقِ سنلتقي

أمّا القصيدة التي فيها: فما وجد أعرابية قذفت بها، فهي هذه:

ألا قـاتـل الله الحـمامـةَ غـدوةً
عـلى الغصـن مـاذا هـيجتْ حـين غنتِ
فـغنـت بـصـوتٍ أعـجـمـي فـهـيجـت
هـواي الـذي كـانـت ضلوعـي أكـنّـتِ
فـلو قـطرت عـين امـرىء مـن صـبـابـة
دمـاً قـطرت عـيـني دمـاً وألحـت
فـما سَـكـنـت حـتى أويـت لـصـوتهـا
وقـلـت تُـرى هـذي الحـمامـةُ جُـنـت
ولي زفـرات لـو يَـدُمـن قـتـلـنـني
بـشـوقٍ إلى تـلـك الـتي قـد تـولـت
إذا قـلـت هـذي زفـرة الـيـوم قـد مـضـت
فـمـن لي بـأخـرى في غـدٍ قـد أظـلـت
أيـا مُـنشِرَ المـوتى أعِـنّي عـلى الـتي
بهـا نَهَلت نـفـسي سَـقـامـاً وعـلّت
لـقـد بـخـلـت حـتى لـو آني سـألـتـهـا
قـذى الـعـين مـن سـافي الـتراب لـضنّـت
فـقـلـت ارحـلا يـا صـاحـبـيّ فـلـيـتـني
أرى كـلّ نـفس أعـطيـت مـا تمـنـت

حلفتُ لها بالله ما أم واحد
إذا ذكرته آخر الليل أنّت

وما وجد أعرابية قذفت بها
صروف النوى من حيث لم تك ظنت

لها أنة عند العشاء وأنة
سحيراً ولولا أنَّتاها لجُنّتِ

إذا ذكرت ماءَ العِضاه وطيبَه
وبرد الحصى من بطن خبت أرنّت

بأعظم من وجدي بها غير أنني
أجمجم أحشائي على ما أجنّت

❊ ❊ ❊

معترك المنايا

«معـترك المنايـا» عبارة قيـل إن النبي ﷺ عناهـا حين قـال: أكثر أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، فمعترك المنايا في العمر هو ما بين الستين إلى السبعين حـين يكون المـرء عرضـة للموت أكـثر من أي عمر آخر قبل ذلك. ولما بلغ عبد الملك بن مروان الستين وجاوزها سئل عن مبلغ عمره فقال: في معترك المنايا. وهذا معناه أن مدى العمر كان حدّه السبعون، وقلّ من الناس من جاوز ذلك وبلغ السبعين أو الثمانين. ولم يبلغ من الخلفاء في عهود الخـلافة جميعهـا سن الستـين إلاّ القليـل. ولم يعرف في الجاهلية عن رجال أو أناس طال بهم العمـر إلى حدّ بعيـد إلاّ عن نفر قليل منهم عـدد من الشعراء قيـل عنهم إنهم مُعَمَّرون. ونـذكر منهم الحارث بن كعب وعاش مئة وستين سنة والمستوغِر وعاش ٣٢٠ سنة وأدرك الإسـلام ودُوَيـد بن زيـد عـاش ٤٥٦ سنـة، وزهـير بن جنـاب وعاش ٢٢٠ سنة وغيرهم.

وأشار الحافظ أبو الحسن المقدسي إلى معترك المنايا فقال:

تجـاوزتُ ستـين من مـولـدي ... فـأسعـدُ أيـاميَ المُشْـتَـرَكْ

يـسـائـلني زائـري حـالـتي ... ومـا حـال مَن حَـلَّ في المعترك

وذكر معترك المنايا محمد بن صالح التنوخي حين قال:

أقول لمن يلوم على انقطاعي وإيثاري ملازمةَ الزوايا
أأطمع أن تُجدَّد لي حياة وقد جاوزت معتركَ المنايا

أي إنه جاوز السبعين من العمر، وهذا أمر فوق العادة، فكيف بإنسان بلغ الثمانين أو جاوزها؟ ورووا عن النبي ﷺ أنه قال: إذا بلغ العبد ثمانين سنة فإنه أسير الله في الأرض تكتب له الحسنات وتمحى عنه السيئات. وأشار الحسين بن الضحاك المعروف بالخليع إلى هذا الحديث حين قال وقد بلغ الثمانين:

أما في ثمانين وُفّيتُها عذيرٌ وإن أنا لم أعتذرْ
وقد رَفعَ اللّهُ أقلامه عن ابنِ ثمانين دون البشر
وإني لمن أُسَراءِ الإلَه في الأرض نُصْبَ صروف القدَر
فإن يقضِ لي عملاً صالحاً أثاب وإن يقضِ شرًّا غفَر

ومثله قول هبة الله بن أحمد بن السيبي:

رجوتَ الثمانين من خالقي لما جاء فيها عن المصطفى
فبلّغنيها فشكراً له وزاد ثلاثاً بها إذْ وفى
وإني لمنتظر وعده ليُنجزه لي فعلَ أهلَ الوفا

وقال الخليع أيضاً:

أصبحتُ من أُسَراءِ اللّهِ مُحْتَسَباً
في الأرض نحو قضاء الله والقَدَر
إن الثمانين إذ وُفِّيتُ عِدَّتَها
لم تُبقِ باقيةً مني ولم تَذَر

فالثمانون في حياة المرء تعتبر إذاً حداً فاصلًا يتمحّص المرءُ عنده من ذنوبه فلا تكتب له سيئات وإنما تكتب له الحسنات. إلّا أن الثمانين عبء ثقيل على صاحبها، فقد بلغ محمد بن علي الواسطي الثمانين

ولكنه سَئِم منها كما سئم لبيد من طول العمر وزُهير من الثمانين وعجز عن المشي فقال:

كلّ أمر إذا تفكرت فيه ... أو تأملته رأيتَ ظريفا
كنت أمشي على اثنتين قويًّا ... صرت أمشي على ثلاث ضعيفا

ومثله قول الوزير نظام الملك:

بعد الثمانين ليس لي قوة ... قد ذهبت شِرَّة الصُّبُوَّه
كأنني والعصا بكفي ... موسى ولكن بلا نبوّه

وقال ابن هبة الله أبو نصر الواسطي:

وقائلةٍ لمّا عَمَرْتُ وصار لي
ثمانون عاماً عِش كذا وابقَ واسلَم
ودم وانتشِق روحَ الحياة فإنه
لأَطيبُ من بيت بصعدةَ مظلم
فقلت لها عذري لديكِ ممهَّد
ببيت زهير فاعلمي وتعلّمي
سئمتُ تكاليف الحياة ومنَ يعِش
ثمانين حولاً لا محالة يَسأم

وكانوا مع ذلك يتمنون للمرء أن يبلغ الثمانين، ومع الثمانين مشقات وعناء، والمشهور في ذلك قول عوف بن محلِّم الشيباني قاله لعبد الله بن طاهر:

يا ابنَ الذي دان له المشرقان
طُرًّا ودان له المغربان
إن الثمانين وبلغتَها
قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

وعوف بن محلم يشكو وهو في سن الثمانين ضعف السمع عنده، ويشكو أيضاً من أشياء أخرى من الثمانين، فهو يقول بعد البيتين:

وبدّلتني بالشَّطاط انحنا وكنت كالصَّعدة تحت السنانِ

وعوضتني من زَماع الفتى وهمّتي همَّ الجبان الهِدانِ

وقارَبَت مني خطاً لم تكن مقارَباتٍ وثَنت من عِناني

وأنشأت بيني وبين الورى سحابةً ليست كنسج العَنان

ولم تَدعْ فيّ لِمُسْتَمتع إلاّ لساني وبحسبي لساني

وقد عاش عوف ١٢٠ سنة.

وأخذ الغزي عبارة (إن الثمانينَ وبُلِّغتَها) فقال:

طول حياة ما لها طائل نغَّص عندي كلَّ ما يُشْتَهَى

أصبحت مثلَ الطفل في ضعفه تشابهُ المبدأ والمنتهى

فلا تَلُم سمعي إذا خانني إن الثمانينَ وبلِّغتَها

فالغزي يشكو من ضعف السمع عند بلوغه الثمانين. ولم يشكُ ذلك الشهاب المنصوري حين قال:

نحو ثمانين من العمر قد قطعتها مثلَ عقود الجُمانِ

ما أحوجتْ يوماً يميني إلى عصا ولا سمعي إلى ترجمان

فالثمانون لم تجعله يحمل العصا ولا جعلت سمعَه ضعيفاً حتى يحتاج إلى ترجمان. وحمل العصا كما يظهر دليل على بلوغ الثمانين، كما قال ابن سارة:

ولي عصا من طريق الذم أحْمَدها

بها الذم في تأخيرها قَدَمي

كأنها وهي في كفي أهشّ بها

على ثمانين عاماً لا على غنمي

كأنني قوس رام وهي لي وتر
أرمي عليها سهامَ الشيب والهرم

وقد وصف عدي بن زيد هذا الانحناء في القامة بصورة أخرى فقال:

حنتني حانيات الدهر حتى كأني خاتل يدنو لصيد
قريبُ الخطو يحسب من رآني ولست مقيّداً أني بقيد

وهذا مثل قول بشر بن موسى بن صالح الأسدي:

ضعفتُ ومن جاز الثمانين يضعف
ويُنْكَر منه كلُّ ما كان يُعْرف
ويمشي رويداً كالأسير مقيّداً
يُداني خطاه في الحديد ويَرسُف

وكان أحمد بن إسحاق بن البهلول قاضياً في غير مكان واحد فلما بلغ الثمانين وأناف عليها اعتزل العمل وقال: أحب أن يكون بين الصَّرْف والقبر فُرجة ولا أنزلَ من القلنسوة إلى الحفرة، والصَّرف هنا هو ترك العمل. وقال:

أبعد الثمانين أفنيتَها وخمساً وسادسُها قد نما
تُرَجّي الحياةَ وتسعى لها لقد كاد دِينك أن يُكلَما

وقال أيضاً:

إلى كم تخدُم الدنيا وقد جُزْتَ الثمانينا
لئن لم تك مجنوناً فقد فُقت المجانينا

ويُرْوَى عن الفُضَيْل بن عِياض أن نفراً من أصحابه قدموا إلى منزله للزيارة، فقيل لهم إنه لا يخرج إلا إذا سمع القرآن، وكان بينهم مؤذّن له صوت حسن، فقرأ منشداً: ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر..

ورفع بها صوته، فأشرف عليهم الفضيل وقد ابتلت لحيته بالدموع، ومعه خرقة ينشف بها دموعه من عينيه، وأنشدهم في الحال:

بلغتُ الثمانين وقد جُزتها
فماذا أُؤَمِّلُ أو أنتظِرْ

أتاني ثمانون من مولدي
وبعد الثمانين ما يُنتظَر

علتني السّنونَ فأبلينني

ثم خنقته العَبرة ولم يُتم البيت، فأتمه أحد الأصحاب فقال:

ودقَّتْ عظامي وكلَّ البصَرْ

وكان من الأصحاب أحمد بن كامل القاضي فقال وكان قد بلغ الثمانين:

عَقد الثمانين عَقد ليس يبلغه — إلّا المؤخَّر للأخبار والغِيَر

وكان مُعاذ بن مُسلم وهو الهَرّاء النحوي مشهوراً بطول العمر وقد شبه بَلُبَد نسرِ لقمان بن عاد وكان هذا النسر سابعَ نسور لقمان وكان كلّ نسر يعيش ثمانين سنة. وقال أبو السَّرِيّ سهل بن أبي غالب الخزرجي الشاعر في معاذ هذا:

إن معاذ بن مسلم رجل — ليس لميقات عمره أمد
قد شاب رأس الزمان واكتهل الدهر — وأثواب عُمْرِهِ جُدد
قل لمعاذٍ إنْ مررتَ به — قد ضج من طول عمرك الأبد
يا بكرَ حواءَ كم تعيش وكم — تسحب ذيلَ الحياة يا لُبَد
فارحل ودعنا لأن غايتك — الموت وإن شدّ ركنك الجلد

وظل معاذ متمسكاً بالحياة حتى بعد أن بلغ التسعين وجاوزها، وقد مات أولاده وأولاد أولاده، ولكنه قال بعد موتهم:

مــا يَــرتجــي في الــعــيش مَــن قــد طــوى
مــن عــمــره الــذاهــب تــســعــيــنــا
أفــنى بــنــيــه وبــنــيهــم فــقــد
جَــرَّعــه الــدهــر الأمَــرَّيــنــا
لا بــد أن يشرب مــن حــوضــهــم
وإن تــراخــى عــمــرُه حــيــنــا

وللمعري في رسالة الغفران كلام جاء عرضاً عن الثمانين، فذكر أن السبعين كانت أبلغ شيءٍ في العدد كقوله تعالى: ﴿واختار موسى قومَه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾[1] وقولُه جلّ جلاله ﴿إنْ تستغفِرْ لهم سبعين مرة فلن يَغفِر اللّهُ لهم﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ في سلسلةٍ ذَرْعُها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾[3]. واستعملوا الثمانين للدلالة على نهاية العدد، وقال الأعشى:

ولــو كــنــتَ في جُــبِّ ثــمانــين قــامــةً
ورُقِّــيــتَ أســبــابَ الــســماءِ بِــسُــلَّم

وقال عُروة بن حِزام:

يُــكــلِّفــني عــمــي ثــمانــينَ نــاقــةً
ومــا لِيَ يــا عــفــراءُ غــيرُ ثــمــانِ

وقال العلوي البصري:

عــبرت إليهم في ثــمانــينَ فــارســاً فــأدركتُ منهم بُغيتي ومُــراديــا

---

(١) الأعراف آية ١٥٥.

(٢) التوبة آية ٨٠.

(٣) الحاقة الآية ٣٢.

وقال السَّنْبَسي:

ثمانون ألفاً ولم أُحصِهمْ وقد بلغت رَجْمَها أو تزيد

وقال همّام بن غالب:

رمتني بالثمانينَ الليالي وسهم الدهر أقتل سهمٍ رام

وقال جرير:

تدليتَ تزني من ثمانينَ قامةً وقصَّرتَ عن باع الندى والمكارم

وكان الفرزدق قد قال:

هما دلتاني من ثمانين قامة
كما انقضّ بازٍ أقتمُ الريش كاسِرُه

وللفرزدق:

ألا ليتنا نمنا ثمانين حِجّةً تنام معي عُريانةً وأنامُها
ضجيعَين مستورَين والأرضُ تحتنا يكون طعامي شمُّها والتزامُها

ابن أبي عتيق

يقول عمر بن أبي ربيعة:

ليت شعري هل أقول لركب	بفلاة همُ لديها هُجُوعُ
طالما عَرَّسْتُمُ فاستقِلّوا	حان من نجم الثريا طلوع
إنّ همي قد نفى النومَ عني	وحديث النفس شيء وَلوع
قال لي فيها عتيق مقالاً	فجرت مما يقول الدموع
قال لي وَدّعْ سُلَيمى ودَعْها	فأجاب القلبُ لا أستطيع
لا تلمني في اشتياقي إليها	وابكِ لي مما تُجِنُّ الضلوع

وقوله: حان من نجم الثريا طلوع يحتمل معنيين: أحدهما نجم الثريا في السماء وطلوعه في الصيف إيذان باشتداد الحر وفي الشتاء إيذان باشتداد البرد، والمعنى الثاني إشارة إلى الثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أُمية الأصغر وهم العَبَلات، وكان عمر بن أبي ربيعة يشبب بها ثم تزوجت سُهيل بن عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن عَوف. أما قوله: قال فيها عتيق مقالاً، فعتيقٌ هذا هو ابن أبي عتيق وهو عبد الله بن أبي عتيق بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق بن أبي قُحافة، وأبو عتيق اسمه محمد صحابي وأبوه عبد الرحمن صحابي وجده أبو بكر صحابي وجد أبيه أبو قحافة صحابي، وكان ابن أبي عتيق من نساك قريش وظرفائهم واشتهر

بالدُّعابة ورقة الإحساس وحب الشعر والشعراء والعطف على المحبين والرأفة بهم، وله أخبار طريفة في كل ذلك.

ومن طريف أخباره أن عثمان بن حيّان المُرّي لمّا دخل المدينة والياً عليها اجتمع الأشراف من قُريش عليه والأنصار وقالوا له إنك لا تفعل شيئاً أجدى ولا أولى من تحريم الغناء، فوعد وأجّلهم ثلاثَ ليال حتى يفي بالوعد. فقدم ابن أبي عتيق في الليلة الثالثة. وحطّ رحله بباب سلّامة الزرقاء المغنية، وقال لها: بدأتُ بك قبلَ أن أصيرَ إلى منزلي. فقالت: أو ما تدري ما حدث؟ وأخبرته الخبر عن والي المدينة. فقال: أقيمي هذه الليلة إلى السحر حتى ألقاه. ثم مضى إلى عثمان بن حَيّان، فاستأذن عليه، ولّما دخل قال له إنّ أَحَدّ ما أقدمه عليه حُبّ التسليم عليه، وقال له: إنّ مِن أفضل ما عملتَ به تحريمَ الغناء، قال عثمان: إنّ أهلك من قريش أشاروا عليّ بذلك. فقال ابن أبي عَتيق: إنك قد وُفّقت، ولكني رسول امرأةٍ إليك تقول: قد كان الغناء صناعتي فتُبت إلى الله منها. وأنا أسألك أيها الأمير أن لا تحولَ بينها وبين مجاورة قبر النبي ﷺ. فقال عثمان: إذن أَدَعُها لك، وهي حُرّة في مجاورة قبر الرسول ﷺ. فقال ابن أبي عتيق: ولكنّ الناسَ لا يدعونها، ولكن تدعو بها فتنظرُ إليها فإن كانت مِمّن يُتْرَكُ حتى تجاور القبر تركتَها. قال الوالي: فادعُ بها حتى نراها. فأمرها ابن أبي عتيق فتقشفت وأخذت سُبحةً في يدها وصارت إلى عثمان بن حيان وحدثته عن مآثر آبائه ففكه بحديثها. فقال لها ابن أبي عتيق: إقرئي للأمير شيئاً من القرآن الكريم. فقرأت. فأعجب الأمير بقراءتها. ثم قال لها ابن أبي عتيق: إِحْدي للأمير. فَحَدت، فطرب الأمير لِحُدائها. ثم قال لها: غبّري للأمير، ففعلت، وأعجب الأمير بذلك. فقال له ابن أبي عتيق: فكيف لو سمعتها في صناعتها؟ فقال الأمير: قل لها فلتُسمِعْنا. فغَنّت:

سَـدَدْنَ خصاصَ الخَيْم لَما دَخَلنه ... بكـلّ لَبـانٍ واضـحٍ وجبـين
كـأنَّ الخدورَ أجـأت في ظـلالهـا ... ظِبـاءَ المَلا ليست بـذاتِ قـرون

ومضت في غنـائها الأبيـات، فطرب عثمان بن حيـان ونـزل عن سريره وجلس بين يـديها يستمـع ثم قال: لا والله، مـا مثلُك يخرج من المدينة. فقال له ابن أبي عتيق: إذن يقول الناس إن الأمير أذِن لسلاّمـة بالبقاء ولم يأذن لغيرها. فقال عثمان: قد أذنتُ لهم بالبقاء جميعاً.

وسمع ابن أبي العتيق عمر بن أبي ربيعة يوماً يقول:

قـال لي صـاحبي ليعلمَ مـا بي ... أتُحِبّ القتـولَ أُخْتَ الـرَّبَـاب
قلتُ وجدي بها كـوجـدك بـالمـاء إذا مـا مُنِعْتَ بَـرْدَ الشراب
مَـن رسـولي إلى الـثريـا بـأني ... ضِقتُ ذرعـاً بهجـرهـا والكتـاب

فلما سمع: مَن رسولي إلى الثريا لبس ثيابه وركب بغلته وأتى باب الثريا فـاستأذن عليهـا فلما دخل قـالت له: واللّهِ مـا كنت لنا زَوّاراً فـما حاجتك؟ قال: أجل ولكني سمعت عمر بن أبي ربيعة يقـول مَن رسولي إلى الثريا. فجئت برسالةٍ منه. فهو يقول لك: ضِقتُ ذرعاً بهجرِك. ثم خرج بعد أن أخذ منها كتاباً إلى عمـر بأنها رضيت عنـه. وفعل ابن أبي عتيق يشبه فعل أبي السائب المخزومي في مناسبة أخرى.

ويُرْوى عن ابن أبي عتيق أنه ذكـر لعمر بن أبي ربيعـة زينب بنت مـوسى فأطـراها ووصف من عقلهـا وأدبها وجمـالها مـا شغل قلبَ عمـر وأماله إليها فقال فيها الشعر يشبب بها، من ذلك:

يـا خـليـليّ مِن مـلامٍ دعـاني ... وألِمّـا الـغـداةَ بـالأظـعـان
لا تلومـا في آلِ زينب إن القـلـبَ رهـنٌ بـآلِ زينـبَ عـانِ
مـا أرى مـا بـقيـتُ أن أذكـر المـوقفَ منها بـالخَيف إلاّ شجـاني
حـين قـالت لأختهـا ولأخـرى ... مِـن قـطين مـولّـد حَـدَثـان

كيف لي اليومَ أن أرى عمـرَ المرسِلَ سرّا في القول أن يلقاني

فسمع ابن أبي عتيق بالشعر فأتى عمر ولامه عليه وقال: أتنطق الشعر في ابنة عمي، فقال عمر:

لا تَلُمني عتيقُ حسبي الذي بي
إنّ بي يا عتيق ما قد كفاني
لا تلُمني وأنتَ زيَّنْتَها لي
أنت مثل الشيطان للإنسان
إنّ بي داخلاً من الحب قـ ـد أبلى عظامي مكنونه وبراني
لو بعينيك يا عتيق نظرْنا
ليلةَ السفح قَرَّتِ العينان

وشبّب عمر بزينب فقال:

ولستُ بناسٍ ليلةَ الدار مجلساً
لزينب حتى يعلوَ الرأسَ رامِس
وما نلتُ منها مُحْرَماً غير أننا
كلانا من الثوب المورَّد لابس

فسمع ابن أبي عتيق بالشعر فأتى عمر فقال له: يا عمر ألم تخبرني أنك ما أتيت حراماً قط؟ قال عمر: بلى. قال: فأخبرني عن قولك: كلانا من الثوب المورَّد لابس، ما معناه؟ قال عمر: والله لأخبرنّك. خرجت أريد المسجد، وخرجت زينب تريده، فالتقينا، ثم ذهبنا إلى بعض الشعاب فلما توسطنا الشعب أخذتنا السماء فكرِهت أن يُرَى بثيابها بلل المطر فيقال لها: ألا استترتِ بسقائف المسجد إن كنتِ فيه، فأمرت غلماني فستروننا بكساء خزّ كان علي. فلم يُسَرّ ابن أبي عتيق بكلامه.

ومثل حكاية ابن أبي عتيق مع الثريا حكايته مع نُصَيْب الشاعر. فقد مَرّ ابن أبي عتيق بنصيب فقال له: يا أبا مِحْجَن، أَتُودِع شيئاً إلى سلمى؟ قال: نعم. قال: وما ذاك، قال: تقول لها: إنك مَرَرتَ بي وقلت لي: أتودع إليها شيئاً؛ فقلت:

أتصبر عن سلمى وأنت صبور
وأنت بحسن العزم منك جدير
وكِدتُ ولم أُخْلَق من الطير إن بدا
سنا بارقٍ نحو الحجاز أطير

فذهب ابن أبي عتيق إلى سلمى وكانت في قرية يقال لها القسرية فأبلغها الرسالة فزفرت زفرةً كادت أن تفرقَ أضلاعها. وقال لها: كلُّ مملوكٍ حُرّ إن لم تكن رسالتك في الجواب أحسن من رسالته، ولو سمعك الآن لنعق وصار غراباً وطار إليك. ثم حمل رسالتها وعاد إلى نصيب.

ويحكى عن ابن أبي عتيق أن رجلاً شهد عند قاضٍ بشهادة فقيل له: من يعرفك؟ قال: ابن أبي عتيق فبعث القاضي إليه يسأله عن الشاهد هل هو عدل فقال: عَدْلٌ رِضىً. فقيل له: أكنت تعرفه قبل اليوم؟ قال: لا، ولكني سمعته ينشد:

غيضن من عبراتهن وقلن لي ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا

فعلمت أن هذا لا يرسخ إلّا في قلب مؤمن فشهدت له بالعدالة.

وكان ابن أبي عتيق مع عمر بن أبي ربيعة فأنشده عمر في سُعدى بنت عبد الرحمن بن عوف:

أَحِنّ إذا رأيت جمالَ سُعدى وأبكي إن رأيتُ لها قرينا
أسعدى إن أهلكِ قد أجَدّوا رحيلاً فانظري ما تأمرينا

فركب ابن أبي عتيق وأتى سُعدى في الجنائب من أرض بني فزارة ودخل عليها وأنشدها البيتين وقال لها: ما تأمرين؟ فقالت: آمره بتقوى الله يا ابن الصديق.

ويحكى أن الشاعر الحَزين الكناني كان قد ضرب على كل رجل من قريش درهمين كلّ شهر ومن الجملة ابن أبي عتيق فجاء الحزين على حمار له أعجف يتقاضى الدرهمين من ابن أبي عتيق وكان مع ابن أبي عتيق كُثَيِّرُ عزة وكان قصيراً دميماً، فدفع ابن أبي عتيق الدرهمين. والتفت الحزين إلى ابن أبي عتيق وسأله: من هذا معك؟ فقال: أبو صخر كثيّر بن أبي جُمعة. فقال الحزين: أتأذن لي أن أهجوَه ببيت من شعري. فقال: لا، لعمري لا آذن لك أن تهجوَ جليسي، ولكني أشتري عرضَه منك بدرهمين آخرين. فأخذ الحزين الدرهمين، ثم قال: لا بدّ من هجائه ببيت. فقال ابن أبي عتيق: أشتري عرضه منك بدرهمين آخرين. فأخذ الحزين الدرهمين وصارت الدراهم ستة. والتفت الحزين وقال: ما أنا بتاركه حتى أهجوَه. فقال ابن أبي عتيق: وأشتري عرضه منك بدرهمين آخرين، فقال كثيّر لابن أبي عتيق: إئذن له فماذا عسى أن يقول في بيت واحد. فأَذِن له، فقال:

قصير القميص فاحش عند بيته يَعَضّ القُراد باسته وهو قائم

فغضب كثيّر ثم وثب إلى الحزين فلكزه فسقط هو والحمار وقام ابن أبي عتيق وخلّص بينهما، ثم التفت إلى كثيّر وقال له: قبحك الله، تأذن له ثم تفعل به ما فعلت؟ فقال: كُثَيِّرُ: ما ظننت أنه يبلغ بي من الهجاء هذا كلّه في بيتٍ واحد.

وكان ابن أبي عتيق حسن الذوق في الشعر، بل كان يحفظه. ويحكى أن كثيّراً كان مع ابن أبي عتيق فأنشده أبياته التي يقول فيها:

ولستُ بـراضٍ من خليل بنـائـل قـليـلٍ ولا أرضى لـه بقـليـل

فقال له ابن أبي عتيق: هذا كلام من ليس بعاشق، أصدق منك ابن أبي ربيعة حيث يقول:

ليت حظي كلحظة العين منها وكثير منها القليل المهنّا

أو حيث يقول:

فعِدي نائلاً وإن لم تُنيلي إنه يُقنِع المحبَّ الرجاء

وابن قيس الرقيات حيث يقول:

رُقَيَّ بعيشكم لا تهجرونا ومنِّينا المُنَى ثم آمطُلينا
عِدِينا في غدٍ ما شئتِ إنا نُحِبّ وإن مَطلتِ الواعدينا
فإمّا تُنجزي عِدَتي وإما نَعيش بما نؤمّل منكِ حينا

وذكروا ذلك لأبي السائب المخزومي وكان معه الشاعر ابن المولى فقال: صدق والله ابن أبي عتيق، ألا قال كثيرٌ كما قال هذا (أي ابن المولى):

وأبكي فلا ليلى بكت من صبابة
لباكٍ ولا ليلى لذي الود تبذل
وأخنع بالعتبى إذا كنت مذنباً
وإن أذنبت كنت الذي أتنصّل

* * *

حضر ابن أبي عتيق عمرَ بن أبي ربيعة وهو ينشد قوله:

ومَن كان محزوناً بإهراقِ عبرة وهى غَربها فليأتِنا نبكِه غدا
نُعِنه على الإثكال إن كان ثاكلاً
وإن كان محزوناً وإن كان مُقْصَدا

فلما كان في الغد وأصبح ابن أبي عتيق أخذ معه صديقاً له ومضيا إلى عمر بن أبي ربيعة، وقال ابن أبي عتيق: قد جئناك لموعدك. قال عمر: وأيّ موعد بيننا؟ قال: قولك: فليأتنا نبكه غدا، قد جئناك والله لا نبرَح أو تبكي إن كانت صادقاً أو ننصرف على أنك غير صادق.

ثم خرجا وتركاه.

الفهرس

★★★